

القسم الأول :
الأسس الفلسفية لنشأة المعتزلة

القسم الأول : الأسس الفلسفية لنشأة المعتزلة

الفصل الأول : الجذور الأولى للمعتزلة : الأسس الفكرية والأهداف
العملية

الفصل الثاني : مدرستا البصرة وبغداد : الإرهاسات والدواعي
ومسائل الخلاف

الفصل الأول :

الجنور الأولى للمعتزلة: الأسس الفكرية والأهداف العملية

الفصل الأول: الجذور الأولى للمعتزلة: الأسس الفكرية والأهداف العملية

أولاً: التبريرات الظرفية لفكرة الجبر

أصحاب مذهب الإرادة الحرة

الشخصيات الإسلامية التي مهدت للفكر الاعتزالي بمفهومه الإنساني :

أبو ذر الغفاري

معبد الجهني

غيلان الدمشقي

ثانياً: أصل المعتزلة بين التاريخ والنقد

موقعنا الجمل وصفين ، وبدايات القلق العقلي

أصل تسمية المعتزلة من منظور نقدي

ثالثاً: فرق المعتزلة

٣- الهذيلية

٢- العمروية

١- الواصلية

٦- الإسكافية

٥- الأسوارية

٤- النظامية

٩- المردارية

٨- البشرية

٧- الجعفرية

١٢- المعمرية

١١- الحائطية

١٠- الهشامية

١٥- الخياطية

١٤- الجاحظية

١٣- الثمامية

١٧- البهشمية

١٦- الجبالية

رابعاً: مفهوم العقل عند المعتزلة

موقف المعتزلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

الأدلة عند المعتزلة: العقلية والسمعية

أولاً: التبريرات الظرفية لفكرة الجبر :

يمثل الفكر الاعتزالي في التراث الإسلامي مرحلة تنويرية ذات أبعاد إنسانية ، بالمفهوم الأوسع لتلك الكلمة ، بل إن الدارس لهذا الفكر سوف يجد أبعاداً إيمانية على درجة رفيعة من اليقين ، ومن هنا فقد صدق القول بأن المعتزلة قد أقامت الأدلة المنطقية على عقم الاتجاهات الظاهرية والوثوقية التي كانت سائدة أيامهم .

كما أن المعتزلة قد وضعت العقل في المقام القائد لكل فهم أو تفسير أو تحليل ، وكذلك فقد وقفت المعتزلة ضد كل تيار معاصر لها يريد أن يضفي بناءً أسطورياً ثابتاً على حوليات معرفية هي - بطبيعتها - قابلة للكون والفساد .

ولهذا كله فقد عاشت المعتزلة في أكثر عصورها تألقاً مزودةً بوعي التاريخ ، متجهةً إلى الإنسان ، ولم تكن - إطلاقاً - ظلامية ولا غيبية ، بل كانت واقعية عقلانية ، تعبيراً عن الإسلام الحضاري^١ .

ولقد ناصبها أهل السنة والظاهرية العداوة^٢ ، حتى بلغ الأمر أن أفتى البعض من فقهاء " البلاط " بإسقاط شهادة المعتزلة أمام القضاء ، ذلك بعد أن أوقع أعداء

^١ د. عبد الستار الراوي: فلسفة العقل، رؤية نقدية للنظرية الاعتزالية، دار الشئون الثقافية، بغداد ١٩٨٦ م ص ١ : ٨، الشيخ مصطفى عبد الرزاق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٥٩ م ص ٢٥٢ ، W.Montgomery Political attitude of the Mu'tazilah 1963 p44 .

^٢ هناك قناعة بأنه من غير المجدي تفسير التاريخ تفسيراً دينياً ، وكذلك من غير المجدي فهم النظريات العلمية من خلال منظور ديني ، لأن تفسير التاريخ على أساس الدين سيؤدي إلى التشدد في مفاهيم العقيدة ، مما يستتبعه قبول تفسير واحد للتاريخ ، ورفض أي تفسير آخر ، بل ووصمه بالكفر ، أو إتهامه - على أقل تقدير - يؤدي إلى الكفر ، أما فهم النظريات العلمية من خلال منظور ديني ، ففيه ارتهان التابيت الصادق الإلهي - القرآن الكريم - بالمتغير الاحتمالي البشري - العلم !! - وكذلك لا يكون مجدياً أن تحتكر طبقة أو فئة الدين ، انتمياً أو فهماً ، دون فئة أخرى تنتمي لنفس الدين ، وسوف يتبين لنا - بعد قليل - كيف يجعل المعتزلة السنة النبوية المطهرة ويضعونها موضع الإجلال والقدسية ، كما أننا نعلم أن صحيح البخاري - أصح الكتب بعد القرآن الكريم - قد حوى أحاديث صحاحاً ، أخذها البخاري - وكذلك مسلم - عن رجال من المعتزلة ، وقد نعلم أن ابن حنبل - وهو كبير مدرسة الأثر في الفقه الإسلامي - يعتمد أحاديث كثيرة مروية عن رجال من المعتزلة . انظر : ابن جرير الطبري : تاريخ الطبري ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٢ م ج ٥ ص ١٥٨ : ١٦١ ، جمال الدين القاسمي : تاريخ الجهمية والمعتزلة ، مصر ١٣٢١ هـ ص ٥٧ ، ٥٨ ، د. طه حسين : الفتنة الكبرى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ م ط ١ ص ١٧٨ وما بعدها ، د. علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في =

المعتزلة بينهم وبين الخليفة المتوكل العباسي ، والذي كان قد بدأ - بدوره - يستشعر خطراً على ملكه من جراء آراء المعتزلة ، فانقلب على رجالها ، ونكل بهم أبشع تنكيل^١ .

أصحاب مذهب الإرادة الحرة :

من الثابت تاريخياً أن فكرة " الجبر المطلق " التي أعلنها فريق من قراء الشام إرضاءً لبني أمية الذين سعوا جاهدين إلى نشرها تبريراً لسفكهم دماء المسلمين ، بل الدماء الذكية الطاهرة من أهل البيت النبوي ، تلك الفكرة لم تكن تلقى قبولاً لدى بعض رجالاب الفكر والفقهاء في مدرسة محمد بن الحنفية^٢ في المدينة المنورة ، وفي مدرسة غيلان الدمشقي في دمشق ، وفي مدرسة الحسن البصري في البصرة ، تلك المدرسة التي يمكن القول بأن علم الكلام - في صورته العقلية الأولى - قد نشأ فيها على يد رجال المعتزلة^٣ .

=الإسلام. دار المعارف. القاهرة ١٩٨١م ط ٨ ج ١ ص ٢٧٨، د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد. دار الهلال. القاهرة ١٩٧١م ج ١ ص ٦٢: ٦٤
١- لا شك أن الانقلاب الفكري الذي حدث في عهد المتوكل وانتهى إلى ما انتهى إليه من تقطيع لأوصال المعتزلة - رواد التنوير في فكرنا العربي / الإسلامي القديم - راجع بالضرورة إلى ضياع هبة الحكم العباسي ، وتعدد ذوي السلطان من الأمراء والقواد العسكريين ، وتفاقم عوامل الصف السياسي والاجتماعي والعسكري ، حتى أن المنتصر بن المتوكل قد تأمر على قتل أبيه ، وشهد هذه الجريمة البشعة البحتري . انظر: الجاحظ: نفى التنسيب ، تحقيق . عبد السلام هارون . مصر ١٩٦٤م ج ١ ص ٢٨، ٢٢٥ ، شمس الدين الذهبي : مبررات الاعتدال في بعد الرجال . مطبعة السعادة . مصر ١٣٣٥م ج ١ ص ٣٠٧ ، ج ٢ ص ١٨٢ ، حسين مروة : النزعات المادية في الإسلام . دار الفارابي . بيروت ١٩٨١م مواضيع مختلفة ، د. محمود إسماعيل : الحركات السرية في الإسلام . مصر . بدون تاريخ . فصل " القرامطة " ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . ترجمة أمين فارس ، ونبية البعلبكي . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٨م ط ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢- هو الابن الثالث لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وله ولدان : أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، والحسن بن محمد بن الحنفية ، وكلاهما له أثره في الفكر الإسلامي عامة ، والفكر الاعتزالي خاصة . انظر : محمد بن منيع البصري الزهري " ابن سعد " : الطبقات الكبرى . لندن ١٣٣٢ هـ ج ٥ ص ٩٨ ، القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ٢٤ ، القاضي عبد الجبار : المسبة والأمل . ص ٢٣
٣- الحسن الأصمغاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأسياء . بيروت ١٩٦١م ص ٩٨ : ١٠٤ ، فيليب حتى : تاريخ العرب . تحقيق محمد مبروك . بيروت ١٩٦٥م ص ٥٤ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . ص ٢٠٨ ، ابن المبرضي : المسبة والأمل في شرح كتاب الملل والنحل . ص ١٤ ، طاش كبرى زادة : معراج السعاده . ج ٢ ص ١٦٤ : ١٦٦ ، أبو الفلاح بن =

إلا أن الأمر لا يجب أن يؤخذ هكذا على عواهنه ، بل يجب التأكيد على أن المعتزلة وإن كانوا أول من " قعد " و " نظر " القول بتقديم العقل في التفسير والتأويل والحكم على الأشياء ، إلا أن "العقلانية " العربية / الإسلامية قد كان لها إرهاصات قبيل بزوغ نجم المعتزلة ، لأن " كلمة " الاعتزال " و " المعتزلة " قد تردت كثيراً في تاريخ الصراع السياسي / الفكري في الإسلام قبل نشوء هذه الجماعة التي استقر عليها اسم "المعتزلة " في نهاية القرن الأول للهجرة وأواخر القرن السابع للميلاد ، وأصبحت كلمة " الاعتزال " منذ ذلك الحين تعني الإشارة إلى مذهب هذه الجماعة بما تفرّد به من آراء في جملة من " الأصول " الاعتقادية الإسلامية ، وبما تفرّد به - كذلك - من منهج عقلي في معالجة هذه الآراء ^١ .

وقد تمثلت الإرهاصات التي ألمحنا إليها ، فيمن اتفق المؤرخون على تسميتهم بـ " القدرية " ^٢ ، على الرغم من أنهم قد أنكروا " القدر " بالمفهوم الجبري . ولقد عُرف أصحاب مذهب الإرادة الحرة في الإسلام ، أي من يقولون بالاختيار .. عُرفوا باسم " القدريين الأوائل " أي أنهم قد نسبوا إلى " القدر " الذي أنكروه ، أي إلى " هذا المفهوم المخيف " الذي رأوا فيه قيوداً " لاهوتية وخارجية " غير حقيقية تربطهم في مسار محدد لهم ، وتسيّرهم في طريق أعمى ، عليهم أن يمضوا فيه ^٣ .

لقد سعى بنو أمية إلى محاولة فرض مقولة الجبر على المجتمع الإسلامي المأزوم بحكمهم ، وجعله يؤمن بالمشيئة الإلهية التي لا راد لها ، حتى كان معاوية بن أبي سفيان يقف خطيباً وسط جموع المسلمين ويقول قولته الشهيرة " لو أن ربي

=العماد :شذرات الذهب في أخبار من ذهب .دار الآفاق الجديدة .بيروت ج ١ ص ١٨ ، أبو الحسن الأشعري :مقالات الإسلاميين .تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .مكتبة نهضة مصر ،القاهرة ١٩٥٠م ج ١ ص ١٨ ، Rene. Dussaud: Las Arabes en Syrie avant L'Islam p7:9

^١ حسين مروة :النزعات المادية .ج ١ ص ٦٣١

^٢ القدرية هم القائلون بنفي الله تعالى عن الفعل الإنساني .وهم عكس الجبرية الذين لا يثبتون للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً .انظر :القاضي عبد الجبار :المنية والأمل .ص ١٤

^٣ د.علي سامي النشار :نشأة الفكر الفلسفي .ج ١ ص ٣١٤

لم يرني أهلاً لهذا الأمر ما تركني وإياه ، ولو كره الله ما نحن فيه لغيره " ويقول : أنا خازن من خزان الله تعالى ، أعطي من أعطاه الله ، وأمنع من منعه الله . ولو كره الله أمراً لغيره . ويقول : إني أقاتلكم على أن أتأمر عليكم ، وقد أمرني الله عليكم^١.

١- د.النشار :نشأة الفكر الفلسفي .ج ١ ص ٢٢٢ ،وعن حرية الإنسان يقول الأستاذ الدكتور محمد عاطف العراقي شارحاً رأي ابن رشد "إذا فرضنا الإنسان غير مكتسب لأفعاله ،فإن هذا سيؤدي إلى القول بأن التكليف من الأشياء التي لا تطاق ،إذ تكليف الإنسان في هذه الحالة سيتربى عليه عدم وجود فرق بين تكليفه وتكليف الجماد الذي ليس له استطاعة "د.محمد عاطف العراقي :الترعة العقلية في فلسفة ابن رشد .دار المعارف . القاهرة ١٩٦٨م ص ٢٠١ ،ومن الناحية الجغرافية ..لا يشكك باحث في أن الدولة الأموية بسطت لواء الإسلام على بقاع ممتدة شرقاً وغرباً ،من الهند حتى الأندلس ،ومع طول فترة حكم بني أمية التي بلغت نحو اثنتين وتسعين عاماً ،لم يجد في تاريخهم خروجاً عليهم إلا في نهاية حكمهم ،حين خرج زيد علي الوليد ،وخرج مروان علي يزيد ،مما يعني - سياسياً - أن الدولة الأموية كانت ذات جدية وحنكة على الصعيد السياسي .. وهذا أمر نسجله لها ،كما أنه يعني أن هذه الدولة قد حفلت برجال "سياسة " !! لهم وزهم الذي يعتد به في شئون الحكم والجماهير ،ولعل أشهرهم معاوية بن أبي سفيان ،وعبد الملك بن مروان ،والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك ،وهؤلاء حكموا سبعين سنة ،جعلوا للحكم هيبة واعتباراً - وهما لازمان له - لكن هذا لا يمنع من ذكر بعض ما اقترن به حكم الأمويين من أمور نستغربها ونستهجبها : فمعاوية قال له قائل :لنستقيم بنا يا معاوية أو لنفومك ،فيقول :بماذا ؟ فيقول : بالخشب .فيقول :إذن نستقم !!! وواضح ما في هذه العبارة من ثقة عالية بالنفس ، وتلميح إلى عدم الاعتزاز بالتسامح ..مما جعل المتحدث إلى معاوية ينسحب - عي بعمومة - ليتحول النصح إلى مداينة ،أو مداينة ،حيث فهم ما يقصده معاوية ،والبعض الحق في اعتبار ذلك دليلاً على حلم معاوية .انظر :عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : تاريخ الخلفاء .تحقيق .محمد محيي الدين عبد الحميد .مطبعة السعادة .القاهرة ١٢٧٢هـ / ١٩٥٢م ط ١ ص ١٩٥ ،ومعاوية نفسه هو الذي قال :أبو بكر لم يرد الدنيا ولم ترده ،وعمر أرادته الدنيا ولم يردها ،ويحيى تمرعنا فيها ظهراً ليطن .انظر :السيوطي : المصدر السابق . ص ١٢٠ ،لكن الموضوعية تلزمنا الاعتراف بأن معاوية كان مضرب المثل في الحلم ،حتى قيل في حقه "لن يملك أحد هذه الأمة ما ملك معاوية " .وعبد الملك بن مروان كان يقول :والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا ،إلا ضرب عنقه .حتى قال البعض إنه كان أول من نهى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!! لأنه هو نفسه الذي لما بلغه أن أمر الخلافة قد صار إليه ،وكان المصحف بين يديه ،أطبقه وقال : هذا آخر العهد بك ! .انظر :السيوطي : المصدر السابق . ص ٢١٧ : ٢١٩ ،وهو نفسه الذي جعل الحجاج أقرب الناس إليه ،والحجاج هذا هو الذي سب عبد الله بن عمر لما اتهمه ابن عمر بالكذب ،فقال له الحجاج :اسكب ... فأبك سبوح قد حرق وذهب عقلك ، ويوسك أن يؤخذ فتضرب عنقه ،فخر وفد انتفعت خصيتاه ،بطوف به صبا أهل البصع . كل هذا السباب الفاحش لاس عمر لأنه دافع عن الربر حين اتهمه الحجاج بحرق المصحف .انظر :أبي سعد :الطبقات الكبرى .دار صادر .بيروت ج ٤ ص ١٨٤ .وفي عهد يزيد بن معاوية استسجبت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام فعزل فيها أربع =

ومن المؤكد أن مسارات الجبر في الفكر الإسلامي الأول ، لم تكن ذات أبعاد عقائدية بقدر ما كانت بواعثها سياسية " أول " فيها الدين ليدعم أغراض الساسة ، ويوطد أركان حكم بني أمية ، ويبرر ما وقع منهم من خروج على العقيدة والأعراف ، حتى أن كتب التاريخ لتذكر لنا كيف صار القول بالجبر على منابر الساسة في كلا طرفي الأمة : الطرف الشرق والطرف الغربي . وقد لعبت السياسة دورها في تشويه الغايات النبيلة والطموحات العادلة والمشروعة لهؤلاء النفر الذين أراونا دفع مقولة الجبر ، أو كما قال غيلان الدمشقي لصاحبه صالح : وإنما نُقم منا أن قلنا إن ربنا منصف لا يجور^١ .

وليس من نافلة القول الذهاب إلى الاعتقاد بأن المعتزلة تمثل مرحلة راقية .. وراقية جداً ، من مراحل التفكير العقلي في الإسلام ، تأسيساً على تلك الموضوعات التي عالجوها ، والقضايا التي أثاروها ، والأسئلة التي طرحوها ، معتمدين في ذلك كله على دراية غير محدودة بأساليب الجدل والمناقشة .

ولكن - ورغم هذا كله - لا بد من القول " بأنه بضدها تعرف الأشياء " ، ومن ثم يكون لزماً على الباحث في تاريخ المعتزلة ، مُعتمداً على المنهج الفلسفي النقدي ، أن يرجع إلى بدايات " القلق " العقلي ، والتي مهدت السبيل أمام رجالات المعتزلة للقول بمبادئهم الخمسة ، والتي اعتمدوا فيها - كليةً - على العقل المتفهم للنص

=آلاف وخمسمائة. انظر: محمد بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ. تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤١٥هـ ط ٢ ج ٢ ص ٤٥٦ ، محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٧هـ ط ١ ج ٢ ص ٢٥٢ . ويرد بن عبد الملك الذي اشتهر بعشقه سلامة وحبابة ، ولما ماتت الأخيرة حين رمى في قفها "حبة غيب" فشرقت بها فماتت ، ظل في داره لا يخرج منها إلى أن مات !! انظر : إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء "ابن كثير" : البداية والنهاية . مكتبة المعارف. سروت ١٩٨٧م ج ٩ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

^١ - الفاضل عبد الجبار فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة . ص ٦٤ ، ٨١ ، عبد الرحمن بن حديد : المقدمة . المكتبة التجارية . مصر ص ٢١ وما بعدها ، شمس الدين الذهبي : العبر في أخبار من عبر . سروت ١٩٥٩م ج ٦ ص ٢٢٧ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مصر ١٣٢٢هـ ج ٨ ص ١٤١

الديني ، وما كانوا مهملين لهذا النص ، كما أراد أعداؤهم أن يصوروههم ، فيما سنتعرض له بالدراسة بعد قليل .

الشخصيات الإسلامية التي مهّدت للفكر الاعتزالي بمفهومه الإنساني :

يمكن للباحث أن يُشير إلى ثلاث شخصيات إسلامية أنكرت الجبر ، وآمنت بحرية إرادة الإنسان ، وذهبت في ذلك إلى مدى غير مسبوق ، فملهم من لقي ربه في فلاة وحيداً^١ ، ومنهم من قتله الحجاج تعذيباً وصبراً^٢ ، ومنهم من قُطعت يداها ورجلاه .. ثم قُطع لسانه^٣ .

١- أبو زر الغفاري :

أما الشخصية الأولى ، فقد بدأت إنكارها لنظرية الجبر في وقت مبكر جداً ، وهو أبو زر الغفاري الصحابي الجليل ، الذي كان علوياً لا يدين بالولاء لإمارة عثمان بن عفان ، وإن لم يكن عنيفاً في ذلك^٤ ، كما أنه لم يكن يدين بالولاء للأمويين ، هذا في مجال السياسة والخلافة ، أما في مجال المال و " الاقتصاد " فقد كان له موقف مضاد

^١ هو أبو زر الغفاري ، من قبيلة غفار ، وجاءت له نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم ، حين تخلف أبو زر عن جيش المحاربين في غزوة تبوك لضعف بغيره وجوعه وظمئه ، لكن أبا زر يلحق بالجيش وحيداً سيراً على الأقدام ، وحين ينكشف عنه النقع وهو يدخل القسطنطين وحيداً ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أبا زر : يمشي وحده ، ويموت وحده . وقد مات أبو زر وحيداً في فلاة الريدة ، حيث نفاه عثمان بن عفان . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية . دار الفكر . بيروت ١٩٧٨ م ج ٧ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، الحافظ أبو حسن المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق : هـ حمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر . بيروت ١٩٧٣ م ط ٥ ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، د. طه حسين : العنينة الكبرى . ج ١ ص ١٦٢ : ١٦٥ .
^٢ هو معبد الجهني ، خرج مع محمد بن الأشعث على الأمويين ، فقبض عليه الحجاج وعذبه حتى الموت . انظر : ابن قتيبة : المعارف . تحقيق : د. ثروت عكاشة . دار المعارف . القاهرة ١٩٨١ م ط ٤ ص ٤٨٤ .

^٣ هو عيلان الدمشقي ، من التابعين الصدوقين ، أصمر له هشام بن عبد الملك ، حين ولاية عمر بن عبد العزيز ، أن يقطع يديه ورجليه ، بل راد على ذلك إذ قطع لسانه !!! انظر : القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٣٠ هامش ١ .
^٤ في الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أظلم الغبراء ، ولا أظلم الحصراء أصدق لهجة من أبي زر . وقد سأله الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف أنت إذا أدركك أمراء بساترون بالقبي ؟ فقال : إذا .. والذي بعثك بالحق لأضرب بسيفي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ أصبر حتى بلغاني . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية . ج ٧ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، د. طه حسين : العنينة الكبرى . ج ١ ص ١٦٢ .

لموقف الأمويين ، أعلن فيه قولاً فصلاً في " الكنز " ^١ وعدم الإنفاق ، بما نفهم منه مقاومته من يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، أي أن أبا ذر الغفاري كان مؤمناً بأن المال مال المسلمين ، ويجب أن لا نمسكه أو نحبس عن أي منهم .

وفي الوقت الذي قتم الأمويون لنظريتهم في الجبر بمقولتهم " إن المال مال الله وإنهم مستخلفون فيه : يعطون من أعطى الله ، ويمنعون من منع الله . نجد أبا ذر الغفاري وهو يضاد هذه المقولة بمقولة أخرى تتم عن إيمانه بحرية الإرادة ، حين قال بأن المال مال المسلمين ، وليس مال الله ، لمعرفة أن مقولة الأمويين هذه ستعد فاتحةً ومدخلاً للقول بالجبر وبالمشيئة الإلهية التي فرضت بني أمية على أعناق المسلمين وعلى بيت المال ، مما سيجعل الخروج على سلطان بني أمية خروجاً على الشرع نفسه ^٢ .

^١ في قولته الشهيرة " بشر الكائنين الذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة . انظر : د. طه حسين . الفتنة الكبرى . ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤

^٢ د. محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٧٢ م ص ٣٧ ، القاضي عبد الجبار : المعنى . ج ٨ " المخلوق " تحقيق . د. توفيق الطويل ، سعيد زايد . القاهرة ص ٤ ، ولعل استخدام بني أمية لهذه المقولات في خطابهم للأمة يمثل نوعاً من الاستخدام النفعي القاصد ، بما يمثل من الانتقاء لما يخدم مصالحها - الدولة - ثم إن هذا الاستخدام يمثل نوعاً من " نفي " الآخر ، بل ووضعه تحت لافتات " المنحرف " و " الخارج عن الملة " . والشاهد - هنا - أن النظر الصحيح يلوح أن الخطاب الإسلامي - بشكل عام - له بعدان : عقدي وسياسي ، لكن الإشكالية هي مدى مشروعية الدور السياسي للخطاب العقدي ، أو ما خطورة تشظي هذا الخطاب الهام بين الدين والسياسة ، أو بين القرآن والسلطان ؟ وفي هذه الجزئية فإن هناك من يشدد على مقارفة الديني للسياسي والسياسي للديني وتماهيتهما معاً ، بحيث يكمن الخطر في القسمة بينهما على الدين نفسه ، تأسيساً على أن العقل الإسلامي ينفر من تلك القسمة المزعومة بين ما هو ديني وما هو سياسي ، لأن التلازم بين الديني والسياسي هو من الأمور المفروغ منها في العقلية الإسلامية ، استناداً على عمومية وشمولية التكليف الشرعية في الإسلام لمناشط الحياة الإنسانية كلها ، لكن هناك من يرى أن إشكالية الخطاب الديني / السياسي بدأت تطل على المجتمع الإسلامي بداية من العهد الأموي - وربما من أحداث الفتنة الكبرى - ثم العهد العباسي ، فهذا الفريق الآخر يرى أنه بذابات العهد الأموي خدمت العقيدة السياسية ، فهناك طرفان يتحدثان عن العشيده : معاوية يحدث عنها باعتبارها أحد طرفي معادلة عصبية العقيدة / السياسة ، وأبو ذر الغفاري رضي الله عنه يتحدث عنها باعتبارها أحد طرفي معادلة إنسانيه العقيدة / الوعي . وبعض المصحى يلحظه الدارس لمقولة أبي جعفر المنصور =

٢- معبد الجهني :

والشخصية الثانية التي نقدم بها لمذهب الإرادة الحرة في الإسلام ، هي شخصية معبد الجهني ، الذي يعد أول من تكلم في القدر^١ .

ولقد كان معبد مننياً أولاً ، عاش في المدينة معظم حياته ، ثم انتقل إلى البصرة بعد أن رافق أبا زر الغفاري في رحلته إلى الشام ، وهي الرحلة التي أنكر خلالها ثراء بني أمية وتأويلاتهم الخاطئة للدين ، ومن ثم فقد اعتبر معبد من تلاميذ أبي زر .

ومما لا شك فيه أن معبداً الجهني وعطاء بن يسار والحسن البصري قد التقوا بعضهم ببعض ، وأن كل واحد منهم قد تأثر بالآخر ، في وقت كان القول فيه بحرية الإرادة الإنسانية ، ومسئولية العبد عما يفعل أمراً لا ترضاه السلطة الحاكمة^٢ ، والتي

"إنني سلطان الله في أرضه وحارسه على ماله ، جعلني عليكم قفلاً ، إن شاء أن يفتحني لإعطائكم ، وإن شاء يقفلني "!! مما مهد لتحول كبير انتهى بخضوع الجميع للسلطة السياسية . انظر في تفصيل أشمل وأدق : رضا الزواوي : من العقيدة إلى السياسة . المجلة التونسية للدراسات الفلسفية . تونس ١٩٨٤م العدد الثاني ص ٤٢ وما بعدها ، فهمي هويدي : القرآن والسلطان . دار الشروق ، بيروت ١٩٨١م ص ١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، سعيد بن سعيد : دولة الخلافة . دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي . دار النشر المغربية . الدار البيضاء ١٩٨٠م ص ٨٥ ، عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية . القاهرة ١٩٥١م ص ٣١ ، laoust . h : les schismes de l'islam . introduction a une etude de la religion musulmane . paris 1965 p37 : 62 ، gardet . l : la cit musulmane vie sociale et politique . paris 1961 p120 ، وأيضاً ما يقوله الإمام ابن تيمية - رحمه الله - في "السياسة الشرعية" مطبعة الحاجي . القاهرة ١٩٦٢م ص ٧٤ "إن الإسلام دين ودنيا ، ويجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين إلا بها " . وما يقوله الشيخ محمود شلتوت في "من توجهات الإسلام" دار الشعب . القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٨ "يصعب أن نفرق في الإسلام بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو سياسة فقط ، فكل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة دين ، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالحكم وتبدير مصالح المسلمين في دنياهم دين أيضاً ، ويمكن أن يسمى سياسة الإسلام في الحكم وإدارة الدولة ، وهكذا يرتبط الدين بالدولة ارتباطاً كبيراً " وانظر : ابن عبد ربه : العقد الفريد . تحقيق . محمد سعيد العربي . القاهرة ١٩٤٥م ج ١ ص ٥٥ فصل "اللولؤة في وصف السلطان " . وعلى الجانب الذي يحتل وجهة نظر مغايرة لارتباط الدين بالدولة إسلامياً . انظر ، وفي مواضع مختلفة : خالد محمد خالد : من هنا بدأ . القاهرة ١٩٦٦م ، علي عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم . طاش كبرى رادة : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٥ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤٨٤

^٢ كان القول بحرية الإرادة مرفوضاً من بني أمية ، حتى أن الحسن البصري كان يسمي مذهب "التقية" فحجده في الوقت الذي يقال عنه "لولا سيف الحجاج ولسان الحسن ما قام لبني مروان أمر" بحده يقول في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه "أما والله لقد فقدتموه سهماً من مرامي الله عبر سوء لأمر الله ، ولا سروفة لمال الله ، =

جندت لها بعض " شيوخ البلاط " كي تضفي على توجهاتها الجبرية طابعاً شرعياً تتجذب إليه العامة وجمهور الناس ، تلك العامة التي لم يكن بنو أمية يستطيعون - ولا يربون - تجاهلها^١ ، ... هذا ويمكن التأكيد على أن معبداً الجهني قد كان من كبار التابعين ، أخذ عن أبي نر الغفاري ، وأخذ كثيرون عن معبد : مثل مالك بن دينار وغيره من زهاد البصرة وعلمائها .

وينقسم المؤرخون على أنفسهم حين يؤرخون لمعبد ؛ ففي الوقت الذي يذهب البعض إلى اعتبار معبد الجهني من رجال الدعوة الإسلامية^٢ ، نرى البعض الآخر يُرجع الأثر الذي شكّل وجدان معبد إلى نصراني من الأساورة اسمه أبو يونس ، ويعرف بالأسواري^٣ ، مما دفع البعض إلى رفض تلك الفكرة جملة وتفصيلاً ، واعتبار " كل محاولة لربط عقائد أصحاب مذهب الإرادة الحرة في الإسلام بنصراني أسلم ثم تنصّر ، محاولة غير صحيحة ، سار عليها أصحاب الفرق المختلفة " .^٤ لهذا نجد قول الشهرستاني " القول بالقدر ، وإنما سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي " .^٥ ونجد قول طاش كبرى زادة " وهكذا كان الخلاف يتدرج شيئاً

= أعطى للقرآن عزائمه فيما له وعليه : فأحل حلاله وحرم حرامه ، حتى أورد ذلك رياضاً موقفة وحدائق مفدقة " وفي ذلك يقول البلخي : قال حماد عن أيوب السجستاني : ما أعينني الحسن في شيء ، ما أعينني في القدر ، حتى خوفته بالسلطان ، على سبيل النصح ، كي لا يعلم السلطان لشدة سطوته ، لأن بني أمية كانت مجمعة - إلا القليل - على الإحبار . انظر : الجاحظ : البيان والتبيين . دار الكتب الحديثة ج ٢ ص ٨٨ ، البلخي : فضل الاعتدال . ص ٨٧ ، ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء الحديث . مكتبة المتنبى . مصر . ص ٣٣ ، حسين مروة : النزعات المادية ج ١ ص ٦٤٠ ، ٦٤١ .

^٢ ابن العماد : شذرات الذهب . ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ ، الذهبي : ميزان الاعتدال . ج ٢ ص ١٨٢ ، د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥ ، Montgomery.W : political of the Mu'tazilah . p4

^٣ في قول الذهبي " معبد الجهني تابعي صدوق في نفسه " انظر : الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٨٢

^٤ أبو الفتح الشهرستاني : الملل والنحل . تحقيق . محمد سيد كيلاني . مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٧٦ م ج ١ ص ٤٧ هامش ١ ، أبو المطهر الإسفراييني : التنصير في الدين . تحقيق . محمد راهد الكونري . مطبعة الأنوار . القاهرة ١٩٥٥ م ص ١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٤ ، القاصي عبد الحبار ، المنية والأمل . ص ٣٠

^٥ د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٣١٩

^٦ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٤٧ ، ويقول أيضاً في نفس هذا الموضوع : ذكر بعض المؤرخين أن معبداً الجهني المنوفى سنة ٨٠ هـ كان أول من تكلم في الإسلام =

فشيئاً ، إلى آخر أيام الصحابة ، حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ويونس الأسواري ، وخالفوا في القدر وإسناد جميع الأمور إلى تقدير الله تعالى ، وهلم جرا ، إلى أن ظهرت قواعد الاعتزال ونشأت مذاهب الضلال ، حتى تفرق أهل الإسلام إلى ثلاث وسبعين فرقة ^١ .

وهذا يدلنا على مدى أثر معبد الجهني فيمن سيأتي بعده من رجال المعتزلة .

٣- غيلان الدمشقي :

والشخصية الثالثة التي تناغمت مع قناعاتها ، ورفعت صوتها تعلن بالاختيار دعماً لشرعية التكليف ، رغم أن الثمن المدفوع كان - بحق - باهظاً ! .. هذه الشخصية هي شخصية غيلان الدمشقي .

وتذهب أغلب المصادر التي أرخت للفرق الإسلامية إلى القول بأن غيلان الدمشقي قد أخذ العلم على يد كل من الحسن البصري ومعبد الجهني والحسن بن محمد بن الحنفية ^٢ ، الذي كان كثيراً ما يقول عن غيلان إنه حجة الله على أهل الشام ... ولكن الفتى مقتول !!!

وكما انقسم المؤرخون على أنفسهم في تقييم معبد الجهني ، نجدهم منقسمين على أنفسهم - كذلك - في تقييم غيلان الدمشقي ، لكن الأمر الذي يثير أكثر من علامة استقهام هو : لماذا يتهم كل من يخالف الفكر الأشعري بالخروج عن " الجماعة " ؟ ذلك لأن الباحث كثيراً ما يجد الهجوم على مخالفني الأشعرية دائماً ما يأخذ شكل

=بالقدر ، وذكروا أنه أخذ ذلك عن نصراني من الأساورة اسمه أبو يونس سنسوية ويعرف بالأسواري . وعن معبد الجهني أخذ القول بالقدر غيلان الدمشقي ، ويالغ في القول بنفي القدر ، وقد هم عمر بن عبد العزيز بقتله .

^١ طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ج ٢ ص ١٦٢

^٢ طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ، ج ٢ ص ١٦٢ ، البلخي : فضل الاعتزال ، ص ٧٦ ، أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٣٦ ، عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق . مطبعة المعارف ، ص ١٢٢ ، الإسفرابيني : التبصير في الدين ، ص ٥٩ ، ٦٠

المهاجمة العنيفة ، والتي يكون أقل قول فيها " الخروج عن أهل السنة والجماعة " و " الخروج عن إجماع الأمة " ^١ !!

وتبيناً لذلك ، ما نجده عند صاحب " المعارف " وهو يؤرخ لغيلان الدمشقي حيث يقول : كان قبلياً قديراً ، ولم يتكلم أحد في القدر قبله ودعا إليه إلا معبد الجهني ، وأخذ هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق ، وكانوا يرون أن ذلك من دعوة عمر بن عبد العزيز عليه ^٢ .

وواضح من هذه الرواية المبتسرة أن ابن قتيبة لم يكلف نفسه مشقة البحث في أصل " دعوة عمر بن عبد العزيز عليه " هذه !! ولا لماذا صلبه هشام بن عبد الملك - أحول بني أمية وعائتها - ، ذلك لأن ذكر هذه الواقعة هكذا مقطوعة من سياقها الاجتماعي والسياسي يوحى للمطالع أن الرجل - غيلان - قد صُلب على باب كيسان بدمشق لشيء قد كان في عقيدته ، خاصة وأن ابن قتيبة يعتمد في روايته على الأوزاعي الذي كان من المتملقين لسلطان بني أمية ، ومن ثم يكون تبرير الأوزاعي قتل غيلان أمراً لا يخلو من ميل أو هوى أو غرض !! ، خاصة إذا علمنا أن الأمر يتعلق برجل كان يقف بالمرصاد لطغيان بني أمية ومظالمهم .

وإلى قريب من هذا يذهب صاحب " سرح العيون " . ولنتركه يروي لنا طرفاً من علاقة عمر بن عبد العزيز بغيلان الدمشقي ، ثم نترك القاضي عبد الجبار يروي لنا طرفاً آخر من تلك العلاقة .

^١ لعل من الأدلة على ذلك ما أورده - قديماً - ابن خلدون في وصفه مخالفتي الأشعرية بالملحدة والمستدعة ، حتى أنه يوصي من يريد أن يكون صحيح الاعتقاد بمطالعة كتب محددة مثل : الإرشاد ، وما كتبه أبو حامد الغزالي وابن الحطيب ، مع علمنا بالتنازع الذي قد كانت بعد هجوم الغزالي على الفلسفة والفلاسفة ، حتى صارت دراسة المصنوع زندقية ، بشعار " من تمسك فقد تزدنق " !! وصارت دراسة الفلسفة كفرًا !! ثم شمل الأمر علوماً أخرى كالرياضيات . وما ورد - حديثاً - من اتهام الفلسفة - عامة - وفلسفة أرسطو - خاصة - والفلاسفة العرب - عامة - وابن رشد - خاصة - بأنهم وراء ما يعانونه من بلاء وفساد للتراث الإسلامي ، الذي لم يدافع عنه أحد كالإمام الغزالي !! انظر : ابن خلدون : المقدمة ، دار القلم ، بيروت ١٩٨٤ م ط ٥ ص ٤٦٧ ، د.توفيق الطويل : قصة النراع بن الدين والفلسفة ، مصر ١٩٥٨ م ص ١١٠ وما بعدها ، د.عبد الحليم محمود : سراب وماء ، حريدة الأهرام القاهرية ، عدد ١٩٧٣/١٠/٣٩ م ص ٧

^٢ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤٨٤

يقول ابن نباتة المصري : غيلان الدمشقي هو ابن يونس القنري الدمشقي ، كان أبوه مولى عثمان بن عفان . وغيلان أول من تكلم في القدر وخلق القرآن في الإسلام ، وقيل إن أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ، وأخذ عنه غيلان الدمشقي ومعه عبد الجهنى . قيل لغيلان : من كان أشد عليك ؟ قال : عمر بن عبد العزيز ، كأنما كان يُلقن من السماء . وقال ابن مهاجر^١ قال : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان وفلاناً^٢ نطقا في القدرة ، فأرسل إليهما ، وقال : ما الأمر الذي تنطقان به؟ قال : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال : وما قال الله ؟ قال : هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم قال : وقال الله تعالى : إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . ثم سكتا ، فقال اقرأ فقرأ حتى بلغا أن هذه تذكره فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله . إلى آخر السورة . قال عمر : كيف تريان يا ابني الأتانة !! تأخذان الفروع وتدعان الأصول ؟ ثم بلغ عمر أنهما أسرفا فأرسل إليهما وهو مغضب فقال لهما : ألم يكن في علم الله حين أمر إبليس بالسجود أن لا يسجد ؟ قال : نعم^٣ ، فقال عمر : ألم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم عن الشجرة أن يأكلا منها ، فألهما أن يأكلا منها ؟ قال : نعم^٤ . فأمر عمر بإخراجهما^٥ .

وكان غيلان قد تاب على يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال عمر : اللهم إن كان كاتباً ، فلا تمته حتى تذيقه حر السيف . فقطعت يداه ورجلاه وصلب في أيام هشام بن عبد الملك^٥ .

^١ يقصد صالحاً صاحب غيلان الدمشقي

^٢ هكذا في النص ، والأولى : بنى . ويقول مهاجر إنه قد أشار إليهما بهذه الإجابة حتى لا يذبحهما عمر !!!

^٣ هكذا في النص أيضاً ، وأيضاً الإجابة جاءت بإشارة من ابن مهاجر

^٤ ابن نباتة المصري : شرح العيون . شرح رسالة ابن زيدون . مطبعة الموسوعات . مصر ١٣٣١ هـ ص ٢٠١ : ٢٠٢ ، أبو الحسن الملقب : التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع . تحقيق محمد راهد الكوثري . القاهرة ١٣٨٦ هـ . ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٥٢

^٥ ثم ذلك لهشام بن عبد الملك بعد أن استفتى الأوزاعي في قتل غيلان وصاحبه صالح ، فأفتاه بذلك بعد مناظرة صورية بين الأوزاعي وغيلان ، ثبت فيها غيلان على =

وإذا كنا قد عرضنا لموقف ابن نباتة من غيلان وتوجهاته العقائدية ، فلا بد وأن نعرض - كذلك - للجانب الآخر من المؤرخين ، والذي يتبنى وجهة نظر غير تلك التي وجدها عند ابن نباتة ، وذلك لكي نقف على السبب الذي كان وراء قتل غيلان صلباً على باب دمشق ، وهل كان السبب يخفي وراءه ما يخفي من دوافع عقائدية - كما يقول البعض - أم أنها كانت عوامل سياسية أخفاها بنو أمية تحت ستار من التأويلات العقائدية ، تخوفاً منهم من غيلان والغيلانية ، والتي أصبحت اتجاهًا سياسيًا يرفض الظلم الواقع على مسلمي ذلك الزمان باسم الجبر .

يقول القاضي عبد الجبار عن رسالة لغيلان إلى عمر بن عبد العزيز : أبصرت يا عمر وما كنت ، ونظرت وما كنت ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الإسلام خلقاً بالياً ورسمًا عاقياً ، فيا ميتاً بين أموات ألا ترى أثراً فتتبع ، ولا نسمع صوتاً فتنتفع ؟ طفا أمر السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ولا يُعطى الجاهل فيسأل ، وربما نجت الأمة بالإمام ، فانظر أي الأمامين أنت ، فإنه تعالى لا يقوّل تعاونوا إلى النار ، إذن لا يتبعه أحد ، ولكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى المعاصي ، فهل وجدت يا عمر حكيمًا يعيب ما صنع ؟ أو يصنع ما يعيب ؟ أو يعذب على ما قضى ؟ أو يقضي ما يعذب عليه ؟ أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم بضل عنه ؟ أم هل وجدت رحيمًا يكلف العباد فوق الطاقة أو يعنّبهم على الطاعة ؟ أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم ؟ وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب . أو التكاذب بينهم ؟ كفى ببيان هذا بياناً ، وبالعَمى عنه عَمى^١ .

ثم يقول : ولي عمر بن عبد العزيز الخزانين ، فوقف -- غيلان -- يبيعها في سوق دمشق ، وبها حوائج بني أمية ، وهو يقول : تعالوا إلى متاع الدنيا ، تعاونوا

= عقيدته في الاخيار ، فأوصى الأوراعى لهسام بعله . والمناظرة - فيما يرى الدارستاني - فيها الكثير من الاحلاق ، لأن الأسئلة الدلالية التي طرحها الأوراعى على غيلان لم تكن من المصعوبة بحيث نحقق أو نستبعد أي علمه - غيلان - وهو من هو في مناظرته ؟ ولكنها كانت مجرد إجراء سياسي أراد به هسام بن عبد الملوك أن يصفي شرعية دسائسه على قبله غيلان وصاحبه . انظر : د. المشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ١٢٢ .

^١ القاضي عبد الجبار : فصل الاعترال . ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ابن المبرقعي : طبقات الفقهاء ج ١ ص ٢٥ ، د. المشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٢٢٤ .

إلى متاع الظلمة ، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته ، من يعنرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى وهذا متاعهم والناس يموتون من الجوع ؟ .وقد رآه هشام بن عبد الملك فاستشاط غضباً وقال : أرى هذا يعينني ويعيب آبائي ، والله إن ظفرت به لأقطع يديه ورجليه .وحين ولي هشام الخلافة خرج غيلان وصاحبه إلى أرمينية يعينان على هشام مظالمه ومظالم بني أمية باسم الجبر ، أو باسم الحق الإلهي ، فأرسل هشام في طلبهما وناقشهما ، فقال : زعمت أن ما في الدنيا ليس هو عطاء من الله لنا .فقال غيلان : أعوذ بالله أن يأتني خزاناً ، أو أن يستخلف الخلفاء من خلقه فجاراً ، إن أئمتنا القوامون بأحكامه الراهيون بمقامه ، الذين كابدوا بالعدل الدول ، وخافوا مقاماً لا يجنون عنه حولاً ، ولا يتعللون بالعلل ، باتوا ومقامهم المحمود وليلهم المشهود بطول القيام والسجود ، لم يول الله وثاباً على الفجور ، ولا ركباً للمحذور ، ولا شهاداً للزور ، ولا شراباً للخمور .عند ذلك أمر هشام بحبسه ، ثم أخرجه وأمر بقطع يديه ورجليه ، وجاءه متشفياً يقول له : كيف ترى ما صنع الله بك ؟ فقال غيلان : لعن الله من فعل بي هذا .وكان غيلان يقول - وهو مقطّع اليدين والرجلين ، وكان صاحبه صالح قد مات عطشاً - : قاتلهم الله ، ... كم من حق قد أماتوه ، وكم من باطل قد أحيوه ، وكم من نليل في دين الله قد أعزوه ، وكم من عزيز في دين الله قد أثلوه .وجاءه الجند يقطعون لسانه ، فقال : لا أعين على نفسي أبداً .فكسروا فكاه واستخرجوا لسانه فقطعوه .فمات .. يرحمه الله .

??????

ثانياً : نشأة المعتزلة بين التاريخ والنقد :

مما لا شك فيه أن علم الكلام علم إسلامي النشأة والأصل ، تأسيساً على أن بناءه قد كان على أساس من النص الديني نفسه ، كما أن المعتزلة تعد أكثر الفرق الكلامية

١- ابن المرتضى :طبقات المعتزلة .ص٢٧ ، د.النشار :نشأة الفكر الفلسفي ج١ ص٢٢٤

اتجاهاً نحو العقل وتعويلاً عليه ، ولنقل - مع ابن رشد - : إن مذهب الفلاسفة في المبدأ الأول هو قريب من مذهب المعتزلة^١ .

وليس من نافلة القول الذهاب إلى الأقرار بأن البحث في أصول الفكر الاعتزالي يجب أن يتخذ له - ضمن ما يتخذ - طريقاً من خلال البحث في أصل تسمية رجال المعتزلة ، ذلك لأن البحث في تلك المشكلة ، سواء لزمتهم التسمية من غيرهم أو أطلقت عليهم من أنفسهم ، حري بأن يكشف لنا عن مسألة نراها واحدة من أهم المسائل في التاريخ الفكري ، بل والعائدي للفرق الإسلامية ، ونعني بتلك المسألة : أصول حركة المعتزلة وذلك الطابع الخاص الذي صار ملازماً لفريق الاعتزال ورجاله^٢ ، ذلك كله إذا وضعنا في الحسبان أن البحث في ذلك الأصل سيعتمد على المنحى الفلسفي النقدي ، أكثر من اعتماده على المنحى التاريخي السردي ، لأنه إذا كان النقد يعد من علامات النضج العقلي والصحة المعرفية ، فإن أهميته تظهر أكثر ما تظهر في الدراسات الفلسفية - بوجه عام - وما يتعلق منها بالجانب الديني - بوجه خاص - على أمل أن يميز لنا النقد بين الغث والسمين ، وبين الأصل والمنحول ، علاوة على أن البحث في " إشكالية التسمية " !! يرجى من ورائه حسم هذه " الإشكالية " كي توجد حلاً جذرياً يكشف - ربما - ما يمكن أن نسميه " التآمر المعرفي " الذي أحاط بتاريخ المعتزلة ، فضلاً عن مذهبهم .. وأيضاً يكشف - ربما - عن أبعاد " الثأر المعنوي " الذي مؤرس ضد المعتزلة فكرة وأشخاصاً .

وإنه لمن المسلمات جواز اعتبار مدرسة^٣ المعتزلة من أعظم مدارس الفكر والكلام ، تلك المدارس التي عُرِفَت في صدر الإسلام الأول ، وفي القرن الثاني الهجري .

^١ ابن رشد : تنهايت التنهايت . تحقيق د. سليمان دنيا . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٠م

ص ٣٧٢

^٢ بللبنو : بحوث في المعتزلة . ضمن كتاب " التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية "

" ترجمة د. عبد الرحمن بدوي . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٥م ط ٢ ص ١٧٣

^٣ من الطريف وجوب التفرقة بين مدرسة وفرقة ، حيث شاع استخدام اللفظين قديماً معاً " فكلمة مدرسة أتية من المدرسية Scholasticism ولذلك تعتبر المعتزلة مدرسة وليست فرقة ، تأسيساً على أن الفرقة هي التي تشكل لنفسها أنظمة دقيقة خاصة =

وتكاد الكتب التي أرخت للمعتزلة أن تجمع على أن المعتزلة قد تعرضوا لهجمات عنيفة وشديدة شنها عليهم خصومهم ومخالفوهم ، ولما لم يستطع المعتزلة الصمود أمام تلك الهجمات ، قضوا تاركين وراءهم ما جعل الباحث من بعدهم يستشعر الأسى لضیاع ذلك التراث القيم ، والذي لا يشك أحد أن من أسباب فقدته وضیاعه أسباباً خضعت في كثير من الأحيان للعصبية المذهبية أو الأحداث السياسية. إلا أن هذا الأمر يهون أمام ما تعرض له فكر المعتزلة نفسه من تشويه وتحريف، حيث انقضت مدة كان على الباحثين في تراث المعتزلة أن يعتمدوا في دراساتهم تلك على أقوال الخصوم^١ والمعانين ، وأغلبهم كانوا متعصبين على المعتزلة غير منصفين لهم^٢.

=بها، ولما كان الدين والدنيا - إسلامياً - مجتمعين ، وكان منصب الخليفة دينياً ودينيًا ، فإن الفرق الإسلامية كونت أنظمة سياسية واجتماعية ، كما فعل الشيعة والخوارج ، أما المعتزلة فلم تكن مثل تلك الأنظمة موجودة عندهم ، ولا كانوا مفترقين عن أهل السنة والجماعة ، لكن المؤرخين المسلمين الأوائل لم يفرقوا بين الفرق وبين المدرسة الفكرية ، فكانوا يطلقون لفظ الفرق على الشيعة والخوارج ، كما كانوا يطلقونه على المدارس الفكرية الكلامية كالمرجئة والمعتزلة ، ذلك بأنهم وقد فهموا صحة الحديث النبوي الشريف "إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وأمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة واحدة : وهي الجماعة" قد راحوا يحاولون تنظيم الفرق الإسلامية حتى جعلوها اثنتين وسبعين فرقة ، مصداقاً للوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم "انظر : زهدي جار الله : المعتزلة ، مصر ١٩٤٧م ص ١ وما بعدها ، ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ، ص ٢ ، أبو رشيد النيسابوري : المسائل في الخلاف ، ص ٤ ، ٥ ، عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، تحقيق : محمد بدير ، مصر ١٩١٠م ص ٥ ، محمد بن عبد الله " الحاكم النيسابوري " : المستدرک على الصحيحين في الحديث . تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤١١هـ ط ١ ج ٤ ص ٤٧٧

^١ ظل هذا الأمر يفرض نفسه على الساحة الثقافية بدرجة كبيرة ، حتى قيام بعثة من وزارة المعارف المصرية إلى اليمن الشقيق عامي ١٩٥١م ، ١٩٥٢م للبحث عن عيون التراث الاعتزالي القيم ، مما كشف لنا عن كثير من دقائق تلك المدرسة على لسان شيوخها . انظر : زهدي جار الله : المعتزلة . ص ١ ، أبو رشيد النيسابوري : المسائل في الخلاف ، ص ٤ ، القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ٥ ، الحسن بن متوية : التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض ، تحقيق : د. سامي نصر لطف ، د. فيصل بدير عون . تصدير : د. إبراهيم بيومي مذكور . دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٥م ص ١

^٢ زهدي جار الله : المعتزلة . ص ١ ، أبو رشيد : المسائل في الخلاف . ص ٣ ، ٥

ومن المعروف أن نشأة المعتزلة الرسمية قد كانت في مدينة البصرة^١ ، حيث سيشهد فيها التاريخ التحولات السياسية والفكرية والعلمية والروحية^٢ ، حيث نجد التوجه العثماني في السياسة قد كان يتمثل في مدينة البصرة أكثر من غيرها ، مما حدا بعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أن يراجع طلحة والزبير حين استئنائه للخروج لآداء العمرة ، فقال لهما : ما العمرة تريدان ، لعلكما تريدان البصرة أو الشام^٣ ، وهذا القول من الإمام علي رضي الله عنه يدل على إدراكه ولاء البلدين لغيره ، وسنعلم - بعد ذلك - أن هذا الطابع سيظل مميزاً للبصرة حتى بين مفكري المعتزلة من مدرسة البصرة^٤ .

وهذا ما سيدفع بعض الباحثين إلى القول بأن البصرة " عثمانية تدين بالكف ، وتقول : كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل " .^٥

كما أننا سنجد أن حركة المرجئة قد ظهرت نواتها الأولى في البصرة ، تماماً مثلما ستظهر نواة القول بالقدر فيها ، والأفكار الاعتزالية الأولى ، سواء على يد أبي

^١ جاء في ذلك - فخرًا - قول أبي بكر الخوارزمي "إن العراق تُحسد على أشياء كثيرة..منها أن الاعتزال بصري" انظر: رسائل الخوارزمي .ص ٣٠ نقلًا عن :زهدي جار الله :المعتزلة .ص ٣٤٣ ، ومدينة البصرة فتحها القائد العربي عقبة بن نزار في منتصف القرن الأول الهجري . والبصرة ، بحكم موقعها الجغرافي ، كانت وما زالت ملتقى طرق تجارية هامة ، وقد قامت البصرة على حدود العراق على بعد بضعة أميال شمال الحيرة . انظر :ابن كثير :البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٧ ، ٤٨ ، ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان . دار الفكر . بيروت . ج ١ ص ٤٣٠ وما بعدها ، د.سعيد مراد :مدرسة البصرة الاعرابية . القاهرة ١٩٨٦ م ص ٢

^٢ د.أحمد صالح العلي :المنظمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .دار الطليعة . بيروت ١٩٦٦ م ص ٣٩ ، الحسن الأصفهاني :تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء .ص ٩٨ : ١٠٤ ، فليب حتى :تاريخ العرب .ج ١ ص ١٥١ ، بارتولد :تاريخ الحضارة الإسلامية .ترجمة حمزة طاهر .مصر ١٩٦٦ م ط ٤ ص ٥٤ ، Rene,Dussaud :Las Arabes En Syrie avant L'Islam ص ٣٩

- المسعودي :مروج الذهب .ج ٢ ص ٣٦٦ ، د.طه حسين :الفتنة الكبرى .ج ٢ ص ٢٤

^٤ شارل بلات :الحافظ في البصرة وبغداد وسامراء .دار القنطرة العربية للتأليف

والترجمة والنشر .دمشق ١٩٦٦ م ص ١٧٥

^٥ اس قسبية :عيون الأخبار .وزارة الإرشاد .مصر ١٩٦٠ م ج ١ ص ٣٠٤

حنيفة أو الحسن البصري أو واصل بن عطاء^١ ، مما حدا بالبعض أن يجعل البصرة "عش القدر"^٢ .

ذلك كله إذا وضعنا في الحسبان أن معركتي الجمل وصفين قد كان لهما من النتائج المادية والمعنوية ما لا يمكن للباحث إنكاره أو التقليل منه ، حيث نعلم أن المتقاتلين في هاتين المعركتين كانوا مسلمين ذوي مكانة مقدسة في نفوس الخاصة والعامة ، ومن ثم بدأت تظهر اللبئات الأولى في الفكر العملي والنظري في الإسلام ، تلك التي ساعدت على ظهور ثلاث جبهات لكل منها رأيها الذي تدافع عنه بالسلاح تارة ، وبالجدل الكلامي تارة أخرى ، وهذه الجبهات الثلاث هي : العثمانيون ، العلويون ، والحياديون . وهذه الأخيرة كانت - كما يقول بلات - أساس المذهبين : الخارجي والمعتزلي^٣ .

والبحث في أصل المعتزلة أثار خلافاً كبيراً بين الباحثين المعاصرين ، حتى صار البعض يذهب إلى القول بأن الاعتزال قد صار اسماً للمعتزلة بعد أن أطلقه أهل السنة عليهم ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن هذه التسمية قد أطلقها المعتزلة على أنفسهم .

وهذا الخلاف ليس جديداً ، بل هو خلاف وقع فيه المؤرخون القدامى أيضاً ، .. و " ينهض تباين آرائهم حول هذه المشكلة دليلاً قاطعاً على ذلك " ^٤ .

^١ ابن قتيبة : المصدر السابق . نفس الموضوع ، طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة . ج ٢ ص ٥٤ ، القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ١٣٧

^٢ الذهبي : ميزان الاعتدال . ج ٢ ص ٢٠٧

^٣ شارل بلات : الجاحظ . ص ٨٢ ، وسنورد - هنا - نصاً للإمام علي ، كرم الله وجهه ، يتيسر لنا من خلاله كيف وظف خصوم الإمام ، رضي الله عنه ، ما هو ديني لخدمة ما هو سياسي ! ! حيث يقول الإمام كرم الله وجهه : عباد الله .. امضوا على حكمكم ، وصدقكم قتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرو بن العاص " وأسماء أخرى " ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً ، فكانوا شر أطفال ، وكانوا شر رجال ، ويحكمهم إنهم ما رفعوها - أي المصاحف - إلا خديعة ودهناً ومكيدة . الطبري : تاريخ الطبري . تحقيق . محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . مصر ١٩٧٩ م ط ٤ ج ٥ ص ٤٨ وما بعدها ، طبعة بيروت . دار العلم للملايين ١٤٠٧ هـ ط ١ ج ٢ ص ١٠١ : ١١٠ . واستخدام معاوية لخديعة رفع المصاحف هذه بدلنا على الاستخدام النفعي المبكر لما هو ديني حسب مقتضيات اللعبة السياسية ومفرداتها .

^٤ البخاري : فضل الاعتزال . ص ١٢ ، ١٣

وإذا كان تباين آراء المتقدمين حول نشأة المعتزلة سبباً نفهم من خلاله الخلاف الكائن بين الباحثين المعاصرين ، فإن ما يدعم هذا الرأي اختلاف المدارس المعتزلية نفسها ؛ ففي الوقت الذي انقسمت فيه المعتزلة إلى مدرستين : مدرسة البصرة ، ومدرسة بغداد^١ ، نجد أن أتباع كل مدرسة كان بينهم من الاختلاف ما لا يجوز التقليل من شأنه^٢ .

والخلاف القائم حول أصل المعتزلة لم يقتصر على نسبة الاعتزال إلى واصل بن عطاء ، أو إلى عمرو بن عبيد ، بل يمتد هذا الخلاف ليشمل الذي أطلق اللقب نفسه على المعتزلة : هل هو الحسن البصري ، أم قتادة بن دعامة السدوسي ، أم هم المعتزلة أنفسهم ؟ .

ولقد كان لرواية اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري النصيب الأكبر في تفسير نشأة الاعتزال ، وفي ذلك يقول البغدادي : واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة ، وداعيتهم إلى بدعتهم (!!!)* بعد معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، وكان من منتابي مجلس الحسن البصري في زمن فتنة الأزارقة ، وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب الكبيرة من أمة الإسلام على فرق : فرقة تزعم أن مرتكب الصغيرة أو الكبيرة كافر مشرك بالله ، وكان هذا القول هو قول الأزارقة من الخوارج ، وزعم هؤلاء أن أطفال المشركين مشركون ، ولذلك استحلوا قتل الأطفال من مخالفينهم ، وقتل نسائهم . وخالفتهم الصفرية في الأطفال . وزعمت النجدات أن

^١ - انقسم المعتزلة إلى هاتين المدرستين ، وكان السبب الأول والأهم في ذلك هو المسألة السياسية المتمثلة في مشكلة الإمامة وقضية التفضيل ، وقد أسس واصل بن عطاء مدرسة البصرة ، وأسس بشر بن المعتز مدرسة بغداد . وسوف نعرض لهاتين المدرستين في الفصل الثاني من هذا القسم .

^٢ - الاختلاف بين مدارس المعتزلة ينقسم الباحثون بشأنه إلى قسمين : قسم يرى أن الاختلاف غير جوهري ، ويقتصر على المسائل الثانوية . انظر : سيدو : تاريخ العرب لعام . ترجمه . عادل زعير . مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٤٨ م ص ٣٩٣ ، وقسم يتعدى ن الخلاف المسائل الثانوية : الفروع إلى الأصول . انظر : أبي المرتضى : طبقات معتزله ص ٥٠

^٣ - من الأقواس ، عن علامات التعجب ، هو من عندي دليل دهشة واستغراب ، لأنه - بص - غير من التعامل غير الموضوعي مع آراء الغير .

صاحب الذنب الذي أجمعت الأمة على تحريمه كافر مشرك. وذهب علماء التابعين في ذلك العصر وأكثر الأمة إلى أن صاحب الكبيرة مؤمن لمعرفته بالله وتوحيده وصفاته وعقله وحكمته ، ومعرفته بالرسول والكتب المنزلّة ، وبأن كل ما جاء من عند الله حق ، ولكنه - هذا الشخص - فاسق . وخرج واصل عن قول هذه الفرق كلها ، وزعم أن الفاسق من الأمة لا مؤمن ولا كافر ، فطرده (!!!) الحسن عن مجلسه لهذه البدعة ، فانضم إليه جماعة من الناس عند سارية من سولاري مسجد البصرة ، منهم عمرو بن عبيد ، فقال الناس فيهما : قد اعتزلا قول الأمة (!!!) فسموا من يومئذ معتزلة^١ .

ويقول الشهرستاني : دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبيرة ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعبيدة الخوارج ، وجماعة يرجنون أصحاب الكبيرة ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل إلى إسطوانة من إسطوانات المسجد يقرر ما أجاب عنه على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمي هو وأصحابه معتزلة^٢ .

ويورد لنا طاش كبرى زادة رواية ثالثة في هذا الأمر ، فيقول : إن عطاء بن يسار ومعبد الجهني جاءا إلى الحسن البصري وقالوا : يا أبا سعيد هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما هي أعمالنا تجري على قدر الله تعالى . وظهرت أيضاً طائفة يكفرون مرتكب الكبيرة ، وطائفة أخرى يقولون لا

^١ البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

^٢ الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٤٨ .

تضر. مع الإيمان كبيرة. وقد سأل رجل منهم الحسن البصري عن حال هاتين الطائفتين ، فقبل أن يتكلم الحسن قال واصل بن عطاء : إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر . أثبت منزلة بين المنزلتين ، وأصر على ذلك ، حتى طرده الحسن عن مجلسه ، فاعتزل عنه وجلس إليه عمرو بن عبيد ، فسموا المعتزلة^١ .

هذه الروايات الثلاث تذهب إلى اعتبار أن واصلاً بن عطاء هو مؤسس مذهب الاعتزال منذ أن قال بالمنزلة بين المنزلتين ، وأن من أطلق عليهم هذا اللقب هو الحسن البصري ، لما اعتزلوا - كما قيل - قول الأمة .

لكن طاش كبرى زادة سرعان ما يورد لنا رواية غير تلك التي أوردها آنفاً .. فيقول : إن الذي سماهم بهذا قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه ، كان تابعياً كبيراً ، دخل مسجد البصرة ، فإذا بعمرو بن عبيد ونفر من من معه ، فأتمهم وهو يظن أنها حلقة الحسن البصري ، فلما عرف أنها ليست هي قال : إنما هؤلاء المعتزلة . ثم قام عنهم ، فمئذ يومئذ سموا المعتزلة^٢ .

فأصل المعتزلة - وفق هذه الرواية - هو عمرو بن عبيد ، وليس واصلاً بن عطاء ، والذي سماهم بهذا هو قتادة بن دعامة السدوسي ، وليس الحسن البصري . إلا أنه لا يمكن التسليم بهذه الرواية ، ونسبة الاعتزال إليها لمجرد أنها قد ذكرت في بعض كتب المؤرخين ، ذلك لأنها تعبر - فقط - عن وجهة نظر أهل السنة في المعتزلة ، والذين اعتقدوا - غالبيتهم - أن الاعتزال خروج عن الدين ، ولذلك قالوا عنهم إنهم اعتزلوا " قول الأمة " مع أنه لا يجوز اعتبار المعتزلة قد " اعتزلوا " " قول الأمة " في هذا الأمر لسببين :

السبب الأول :

١- طاش كبرى زادة : مفناح السعادة ، ج٢ ص ١٦٢ ، المثيري : الخطط المقرية ص ١٦٤ ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ج ٤ ص ١٦٤ .
٢- طاش كبرى زادة : مفناح السعادة ، ج٢ ص ١٦٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٠٩ ، المثيري : كرمات تحقيق . د/حسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت . ج ١ ص ٦٠٩ ، المثيري : ... ص ١٦٤ ، ابن قنينة : المعارف ، ص ٤٨٢ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة ، ص ٤١

أن جمهور الأمة لم يكن على اتفاق بإجماع بشأن هذه المسألة ، بل إن هذه المسألة قد كانت مثار خلاف وتناقض كبيرين ^١ .

السبب الثاني :

أن أجماع الأمة مرهون ، بعد القرآن الكريم ، بالسنة النبوية المطهرة ، وهي تلك التي نُقلت إلينا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بثواتر أو بخبر أو رواية آحاد - وفق معايير محددة - والمعتزلة متهمون من قبل أهل السنة - الخصوم التقليديين للمعتزلة ^٢ - بأنهم ألد أعداء الحديث ^٣ ، وبأنهم - المعتزلة - لا يعرفون الحديث معرفة كبيرة ^٤ ، إلا أن المعتزلة قد كان لهم رأي جدير بالاعتبار يُظهر لنا مدى تمسكهم بالسنة النبوية المطهرة ، ومدى تقديسهم للآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول القاضي عبد الجبار في ذلك الأمر : إن التمسك بالسنة طريقتنا ^٥ ، ويقول نافياً عن المعتزلة أجمعين فرية عدم التمسك بالسنة ، وعدم الأخذ بالأحاديث : سعاد الله أن نقول ذلك ^٦ ، ثم يوضح لنا القاضي عبد الجبار ذلك الكلام المجمل ^٧ .

^١ البلخي : فصل الاعتزال ، ص ٢٢١

^٢ من الطريف أن أبو الحسن علي بن عمراً بن عبيد "مخلد" في النار ، لا شيء إلا أنه - هذا - ... قد رأى ذلك في المنام !!! انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . دا "تب" : حنيفة . بيروت ، ج ١٢ ص ١٦٦ ، ١٦٨ : ١٨٨ ، وهكذا .. مخلد منام مسلماً في "نار لمجرد أن من تحدث للناثم كرر قوله ثلاثاً !! فهل ترانا - على ما يبدو - مغررين بتأييد الآخرين - خاصة من يخالفوننا الرأي - في جهنم ، معتمدين على رؤيا أو منام ؟ فها هو ابن الجوزي يروي - وبدون تمحيص - عن أحد فوله "ولما مات المعري ، رأى (بعض الناس !!) في منامه كأن أفعيين على عاتقي رجل ضرير ، قد تدليا إلى صدره ، ثم رفعاً رأسيهما ، فهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث . فقال : من هذا ؟ فقيل : المعري الملعون !!! وهكذا أصبح هذا المنام "سنداً" لمن يأتي بعد ابن الجوزي ... ولله الأمر من قبل ومن بعد . انظر : ابن الجوزي : المستظم ، ج ٨ ص ١٨٨ نقلاً عن د. عائشة عبد الرحمن : أبو العلاء المعري . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . سلسلة الأعلام . رقم ٦ سنة ١٩٧٥ م ص ١٦٨ ، وانظر الرأي المخالف . ص ٢٧٢ : ٢٧٩ من المرجع السابق . ولتري ما قاله المعري دفاعاً عن القرآن الكريم ... انظر : أبو العلاء المعري : رسالة العفران . دار صادر . بيروت . ص ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

^٣ العريد جيوم : الإسلام . ترجمة . حرجيس فتح الله . بيروت ١٩٧٢ م ط ٢ ص ١٠٤

^٤ محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية . دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٧٢ م ط ١

ص ١٢٩

^٥ القاضي عبد الجبار : فصل الاعتزال ، ص ١٥٦

^٦ القاضي عبد الجبار : المصدر السابق . ص ١٩٢

فيقول : إن العمل عندهم - المعتزلة - على أدلة العقول التي لا تحتمل ؛ وعلى أدلة السنة القاطعة^١ .

ومن ثم لا يصح قول من قال عن المعتزلة " إنهم قد ردوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة بعقولهم "^٢ .

وسواء كان مؤسس الاعتزال هو واصل بن عطاء أو عمرو بن عبيد ، فالأمر سيان ، على اعتبار تلك المكانة الرفيعة التي كان عمرو يحملها لواصل^٣ .

وإذا علمنا أن المعتزلة يوافقون على هذه التسمية ، فإن وراء تلك الموافقة سبباً نعلم من خلاله مدى إدراك المعتزلة لخطورة الأسلحة التي يستخدمها أعداؤهم ضدهم ، والذين لم يتورعوا عن وصفهم بأنهم قد خالفوا " قول الأمة " بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك ، فحاولوا وصم المعتزلة بصفات نهما الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك في حديث له يقول فيه : " القدرية مجوس هذه الأمة " . ومن ثم يكون قبول المعتزلة ذلك اللقب وسيلة من جانبهم لدفع تهمة القدرية عنهم ، حين حاول البعض إلصاقها بهم لدمغ المعتزلة بـ " المجوسية " استناداً للخبر الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

^١ القاضي عبد الجبار : المصدر السابق ، ص ١٩٥

^٢ أبو إسحاق الشاطبي : الاعتصام . تعريف . محمد رشيد رضا ، مكتبة أنس بن مالك . القاهرة ١٤٠٠ هـ ج ٢ ص ١٧٦

^٣ عتب رجل من المعتزلة على عمرو بن عبيد شيئاً قد كان بينهما ، ثم أنشد معرضاً بعمرو :

إن الرمان وما تقنى عجائبه أبقي لنا ذنباً واستأصل الرأس

ثم قال : رحم الله واصلاً ، فرفع عمرو رأسه وقد أغرورت عيابه بالدمع ، ثم قال : نعم .. رحم الله واصلاً ، كان لي رأساً وكنت له ذنباً ، والله ما رأيت أعبد من واصل قط ، والله ما رأيت أزهد من واصل قط ، والله الذي لا إله إلا هو لقد صحبت واصلاً ثلاثين سنة ما رأيت عصى الله قط . انظر : البخاري : فضل الاعتزال ، ص ٦٧ ، ومن الثابت تاريخياً أن عمرو بن عبيد قد كان من جلساء الحسن البصري ، وقد حفظ عنه ، واشتهر بصحبته إلى أن أزاله من عن مذهب أهل السنة . انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٦٢

^٤ رواه الطبراني وأبو داود وعبرهما عن ابن عمر مرفوعاً . انظر : الحاكم النيسابوري : المسندك على الصحيحين في الحديث ، ج ١ ص ١٥٩ ، الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٤٢ ، د. سعيد مراد ، مدرسة البصرة الاعتزالية ، ص ٤٩ ، حسين مروة : النزعات المادية ، ج ١ ص ٦٢٨

وقد أشارت مراجع غير قليلة إلى هذه القضية ، منها ما قاله القاضي عبد الجبار نفسه في " شرح الأصول الخمسة " حيث يقول : اعلم أن القدرية عندنا هم المجبرة والمشبهة ، وعندهم المعتزلة ، فنحن نرميهم بهذا اللقب ، وهم يرموننا به ، وقد حكى عن بعضهم أنه قال : إن المعتزلة كانت تلقبنا بالقدرية ، فقلبناها عليهم ، وقد أعاننا السلطان على ذلك ^١ .

ومنها ما قاله نلليو " يبدو أن هذه التسمية قد انتشرت انتشاراً بطيئاً ، إذ يتكلم ابن قتيبة عند ذكره لمذاهب عصره لا عن المعتزلة ، بل عن القدرية " ^٢ . ويقول : ولما أظهروا آراء مخالفة في مسائل عديدة أخرى ، مثل صفات الله ، وطبيعة القرآن ، والوعد والوعيد ، ومشاكل أخرى ثانوية ، بدأت هذه التسمية غير كافية ، لذلك استبدل بها لفظ المعتزلة ، ولم تعد تستعمل شيئاً فشيئاً ^٣ .

ومنها ما قاله الشهرستاني " المعتزلة يلقبون بالقدرية " ^٤ .
ومنها ما قاله دي بور " إن القدرية هم أسلاف المعتزلة ، وإن هؤلاء الأخيرين هم خلفاء القدرية " ^٥ .

ومنها ما قاله ابن قتيبة عن عمرو بن عبيد " عمرو بن عبيد كان يرى رأي القدر ويدعو إليه ، واعتزل الحسن وأصحاب له فسموا معتزلة " ^٦ .

ومنها ما يقوله ابن حزم " وجملة ما عُرفوا به لقب القدرية ، سماهم به أهل السنة ، وكلاهما يرفضه لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " القدرية مجوس هذه

^١ - القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ٧٧٢ ، ٧٧٣

^٢ - نلليو : يحون في المعتزلة . ضمن كتاب " التراث اليوناني " ص ١٧٦

^٣ - نلليو : المرجع السابق . ص ١٧٧

^٤ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ٤٢ ، د . سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية ص ٤٧

^٥ - دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام . ترجمة . د . محمد عبد الهادي أبو ريده . لجنة

التأليف والترجمة والنشر . مصر ١٩٥٤ م ط ٢ ص ٥١

^٦ - ابن قتيبة : المعارف . ص ٤٨٢

الامة " .وسماهم أهل السنة القدرية لقولهم بحرية الإرادة واختيار المكلف ، فظنبا أهل السنة تنحية ، وسماهم هم بها أهل السنة لقولهم بقضاء وقدر لازميين " ^١ .
واللسان العربي ينسب الشخص إلى ما يثبت له لا إلى ما ينفيه ، فـ " إن من ينسب نفسه إلى أمر فإن العرب تشتق له من ذلك الاسم نسبه ، ألا ترى أنهم يقولون فيمن ينسب نفسه إلى الجبر فهو جبري ، ومن يقول بالعدل فهو عدلي " ^٢ ؟
وبذلك يكون المعتزلة قد نفصوا عنهم وصمة القدرية وألصقوها بغيرهم بعد قبولهم هذه التسمية ^٣ .

إلا أنه لا يمكن الاعتقاد بأن القول بالمنزلة بين المنزلتين يعد تفسيراً لنشأة الاعتزال وبيان أصله ، وذلك لاعتبارات عديدة ... منها :
* أن الاعتزال لا يمكن أن نفهم أصوله من القول بالمنزلة بين المنزلتين ، ذلك لأن هذا الأصل كان أكثر الأصول الخمسة محلاً للخلاف بين المعتزلة أنفسهم ، وخاصة معتزلة بغداد ، الذين ينسبون أنفسهم إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين ، فلو كان هذا الأصل ، من أهم الأصول لما جاز الاختلاف بشأنه بين المعتزلة بعد أن قال الخياط : وليس يستحق واحد من الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمصلحة بين المنزلتين ، والأمر

^١ ابن حزم : الرد على ابن النغريلة اليهودي . تحقيق . د. إحسان عباس . دار العروبة مصر . ١٩٦٠م ص ٢٢٨

^٢ محمود الملاحمي : الفائق في أصول الدين . مخطوط دار الكتب المصرية ، القاهرة . علم كلام ١٩/٨ ط ص ٦٤ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية . ص ٤٨

^٣ يقول القاضي عبد الجبار : وهذه المسألة - بقصد المنزلة - تلقب بمسألة الأسماء والأحكام ، وذهب وأصل من عطاء إلى أن صاحب الكبيرة لا يكون مؤمناً ولا كافراً ولا منافقاً ، بل يكون فاسقاً . وهذا المذهب أحده عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وكان من أصحابه ، وقد حرت بين وأصل وعمرو بن عبد مناظرة في هذا ، فرجع عمرو إلى مذهبه وبرك حلقة الحسن البصري واعتزل جانباً ، فسموه معتزلياً ، وهذا أصل تسمية أهل العدل بالمعتزلة . انظر : القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ١٢٧ ، ١٢٨ ،

بالمعروف والنهي عن المنكر^١. وبعد أن قال القاضي عبد الجبار : إن المكلف إذا عرف هذه الأصول يلزمه معرفة الفقه والشرع^٢.

* أن أعداء المعتزلة كانوا نشيطين في البحث عن " عورات " في المذهب الاعتزالي تنتقص من إسلامهم - المعتزلة - وتطعن في عقيدتهم ، فوجهوا نقدهم إلى قول المعتزلة بنفي الصفات والقول بخلق القرآن والقول بحرية الإرادة الإنسانية ، ولم يوجهوا نقدهم إلى أصل " المنزلة بين المنزلتين " ، فلو كان هذا الأصل هو أهم أصول المعتزلة ، لكان قد لقي من أهل السنة أعظم الاعتراضات^٣.

وهناك رأي آخر يحاول أن يضع تفسيراً جديداً لنشأة المعتزلة ، وقد تبناه النوبختي ... حيث يقول : وفرقة اعتزلت مع سعد بن أبي وقاص وسعد بن مالك وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء اعتزلوا عن علي بن أبي طالب ، وامتنعوا عن محاربته ، أو المحاربة معه ، بعد دخولهم في بيعة علي والرضا به ، فسموا معتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة إلى الأبد ، وقالوا لا يحل قتال علي ولا القتال معه . ونحز بعض أهل العلم أن الأحنف بن قيس التميمي قد اعتزل بعد ذلك في خاصة قومه بني تميم ، لا على التدين بالاعتزال بل على طلب السلامة^٤.

وهذا رأي يعتمد على محاولة إرجاع نشأة المعتزلة إلى الأحداث التي تلت مصرع الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتبني معاوية - ولو ظاهرياً - فكرة الثأر للإمام المقتول ، ثم تطورت الأحداث حتى وقوع حرب صفين بين معسكري علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ووقوف

^١ أبو الحسين الخياط : الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد . تحقيق د. نبيح مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ١٩٨٨ م ص ١٢٧

^٢ القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ١٢٦

^٣ محمد جواد حسن : معتزلة البصرة . مخطوط ماجستير . كلية الآداب . جامعة الإسكندرية ١٩٧١ م ص ٨

^٤ النوبختي : فرق الشيعة . استانبول ١٩٢١ م ص ٥ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية . ص ٢٤ ، حنا الفاخوري و خليل الحر : تاريخ الفلسفة العربية . دار المعارف . بيروت ١٩٥٧ م ج ١ ص ١٤١ وما بعدها .

بعض الأفراد من المسلمين. ، ومنهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد - وكلهم من خيرة الصحابة - موقفاً وسطاً بين علي ومعاوية : فلا هم حاربوا مع علي ، ولا هم حاربوا ضده .

ويعتمد القائلون بهذا الرأي على قولين : أحدهما لعمر بن عبيد ، والآخر لواصل بن عطاء :

أما عمرو بن عبيد فقد قال : والله لو شهد عندي علي وعثمان وطلحة والزبير ، على شرك نعل ما أجزته^١ .

وأما واصل بن عطاء ، فقد قال : كن في الفتنة كابن لبون : لا ظهر فيركب ، ولا لين فيُحلب^٢ !!

إن البليخي يرفض هذا الرأي^٣ لتفسير نشأة المعتزلة ، فيقول : ومن الناس من يقولون سموا معتزلة لإعترالهم علي بن أبي طالب في حروبه ، وليس كذلك ، لأن جمهور المعتزلة ، أكثرهم إلا القليل الشاذ منهم ، يقولون إن علياً كان على صواب وإن من حاربه فهو ضال ، وتبرأوا منه ما لم يتب عن محاربته ، ولا يتولون أحداً ممن حاربهم إلا إذا صحت توبته عندهم ، ومن كان بهذه الصفة فليس بمعتزل عن علي ، ولا يجوز أن يُسمى بهذا الاسم^٤ .

وهناك رأي ثالث ، يذهب قائلوه إلى نفي أن يكون غير المعتزلة قد سموا المعتزلة بهذا الاسم ، ويقولون إن التسمية إنما صدرت عن المعتزلة أنفسهم ... وفي

^١ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج. ١٢ ص ١٦٦ ، ١٧٨

^٢ الجاحظ : البيان والتبيين . مطبعة الاستقامة ١٩٤٧ م ج ٢ ص ٩٤

^٣ يُضعف من اعتراض البليخي أنه من المعتزلة ، وربما يكون قد أراد أن يظهر أصحابه - المعتزلة - بمظهر الموالين لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

^٤ يقول البغداديون كلهم - قداماؤهم ومحدثوهم - إن علياً أفضل من أبي بكر الصديق . انظر : أبو القاسم البليخي : فصل الاعتزال ص ١٢ ، ١٤ ، أبي أبي الحديد : شرح بهج البلاغة . تحقيق : أبو الفضل إبراهيم . مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٩ م . ط ١ ج ١ ص ٧ ، وتحذر الإشارة - هنا - إلى أن الزيدية لما قالت بـ "إمامة المفضول" مما يعني - ضمياً - الاعتراف بصحة خلافة أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، لما حدث هذا انسحب كثير من أنصارهم وانضموا إلى العباسيين ، مما كان له أثر كبير في فشل الثورة الزيدية الأولى ، التي قامت عام ١٢٤ هـ رغم التفاؤل الذي صاحبها لكثرة المؤيدين لها من الفقهاء والعرب والموالي .

هذا يقول الملطى : هم سمو أنفسهم معتزلة ، وذلك عندما بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان^١ وسلم إليه الأمر ، اعتزلوا الحسن ومعاوية ، وجميع الناس ، وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي ، ولزموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة ، فسموا معتزلة^٢ .

ونلاحظ أن هذه الرواية ، ورواية النوبختي ، بينهما اتفاق ، كما أن بينهما اختلافاً : أما الاتفاق . فإن الروايتين تمثلان القول بأن بدء الاعتزال يُؤرخ له بتلك الأحداث السياسية التي أعقبت النهاية التراجيدية المحزنة للخليفة الراشد عثمان بن عفان^٣ رضي الله عنه ، وربما قبل ذلك .

وأما الاختلاف . فإن النوبختي يجعل التسمية قد سماهم بها الآخرون ، بينما الملطى - كما تبين من روايته - يجعل المعتزلة هم الذين ارتضوا لأنفسهم هذا اللقب ، وسموا أنفسهم به .

^١ بويع للحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالخلافة - كما يقول الطبري - في سنة ٤٠ هـ ، وفي نفس السنة بويع لمعاوية بن أبي سفيان بالخلافة بإبيليا ، وبعد ذلك بعام واحد سلم الحسن الأمر كله لمعاوية بن أبي سفيان ، وذلك بعد خطبة موجزة خطبها في أهل العراق ، عاب عليهم أموراً ثلاثة توحد نفسه عليهم . انظر : الطبري : تاريخ الطبري . دار المعارف ١٩٦٣ م ج ٥ ص ١٥٨ ، ١٦٢ . المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة النخارية . القاهرة ١٩٤٨ م ج ٤ ص ٢٨ .

^٢ الملطى : التنبيه والرد . ص ٤١

^٣ عثمان بن عفان رضي الله عنه . هو الخليفة الراشد الثالث ، روج بنتين من بنات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحد المبشرين بالحجة مع أبي بكر وعمر وعلي والزبير وطلحة وابن عوف وابن أبي وقاص وابن زيد وأبي عبيدة الجراح ... وإن كان البعض يبدأ هؤلاء العشرة الكرام بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يذكر - من ثم - أبا عبيدة . هاج عليه بعض المسلمين وخبروه بين ثلاثة أمور : إما المعاقبة على أخطائه ، ثم يستمر خليفة للمسلمين . وإما أن يعتزل الحكم راضياً طائفاً . وإما أن يستشار في أمره الرعية ، وإما عزله وإما أقره . ولما رفض عثمان رضي الله عنه هذه الخيارات الثلاثة قتله الثائرون . ويروي الطبري أن عثمان رضي الله عنه لما قُتل مكث ليلتين بدون دفن ، ورفض بعض الأنصار الصلاة عليه ، ورفضوا دفنه بالنقع ، فلما ذكرهم البعض أن عثمان قد صلى الله عليه وملائكته ، أصرروا على رفضهم ، فدفن في مكان يقال له "حش كوكب" حتى إذا ما آلت الخلافة إلى الأمويين أدخلوا هذا المكان في البقيع الطاهر . وبلغ من ذود المأساة أن عمير بن ضابي دخل على عثمان رضي الله عنه ، وهو ميت ، فاعبى عليه وكسر ضلعاً من أضلاعه . انظر : محمد بن جرير الطبري : تاريخ الطبري . دار الكتب - بيروت ١٤٠٧ هـ ج ٢ ص ٦٨٨ ، دطه حسني : القصة الكبرى . ج ١ ، ج ٢ مواضع محدودة .

هذه رواية - مع ما فيها من اتساق - إلا أن القول بأنهم سموا أنفسهم باسم المعتزلة ، أمر يحتاج إلى مراجعة ، ذلك لأنه " ليس من المؤلف أن تطلق فرقة كلامية اسماً على نفسها ، وحتى الفرق التي تُسمى باسم أحد رؤسائها ، تكتسب هذه التسمية بعده من الآخرين ، مثل الجاحظ الذي لم يدع إلى تكوين فرقة كلامية تحمل اسمه ، لكن الذي حدث - بداهة - أن من تابعوا الجاحظ في آرائه الكلامية ، عُرفوا بين الناس بالجاحظية ، كما لا يفوتنا أن لفظ الاعتزال ، بالذات ، ليس بالمدح لتصطفيه فرقة وتطلقه على نفسها " ^١ .

ويتضح لنا مما سبق عرضه من الآراء الكثيرة التي حاولت تقديم تفسير " جامع مانع " لنشأة الاعتزال ، أن هناك اختلافاً قد كان قائماً بين المتقدمين من الباحثين والمؤرخين ، مما يجعل الاختلاف بين الباحثين والمؤرخين المحدثين أمراً وارداً ، بل أمراً ضرورياً ^٢ .

لكن الأقرب للصواب أن نفسح المجال لكل رأي حاول تقديم تفسير لنشأة الاعتزال ، وذلك بحسب الزاوية التي ينظر منها المؤرخ إلى المعتزلة . وقد رأينا - مما سبق - كيف فسر أهل السنة نشأة الاعتزال ، وذلك انطلاقاً من نظرتهم إلى الاعتزال واعتباره خروجاً عن " رأي الأمة " .

وعلى نفس المستوى ، يمكن النظر إلى محاولات الشيعة تقديم تفسير آخر يمثل وجهة نظرهم في الاعتزال ، فالشيعة في بداياتها السياسية كانت تتبنى مبدأ " من ليس معي ، فهو علي " !! ولذلك نجد تفسيرهم لنشأة الاعتزال مقيداً بهذا المبدأ ، حيث وجدوا في المعتزلة نكوصاً معيياً عن نصرته الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبذلك صارت تفسيراتهم لنشأة الاعتزال متسقة ونظرتهم إلى المعتزلة ، سواء اتفقنا معهم أم اختلفنا .

^١ البخاري: فضل الاعتزال، ص ١٥، رهدي جار الله: المعتزلة، ص ٤

^٢ حسين مروة: النزعات المادية، ج ١ ص ٦٣١ وما بعدها

بل إن الأمر بين الشيعة أنفسهم يدعو إلى تأكيد ما نذهب إليه ، فنحن نجد أن الشيعة المتأخرين قد أوجدوا صلات قريبي في الرأي بين المعتزلة وبينهم - وقد صار الشيعيون المتأخرون معتزليين ، أو صار المعتزليون شيعة^١ - فنجد من يفسر نشأة المعتزلة بمنطق آخر ، ويرفض تسمية المعتزلة بهذا الاسم تحت دعوى أن المعتزلة قد اعتزلوا علياً : فلا هم حاربوا معه ، ولا هم حاربوا ضده ، لأنهم - كما قال البخاري - يفضلون علياً ويتولونه .

??????

ثالثاً : فرق المعتزلة :

انقسمت المعتزلة إلى فرق كثيرة ، وقد نسبت كل فرقة إلى رئيس لها ، وقد كانت بين كل فرقة وأخرى خلافات ظاهرة . ويمكن اعتبار تلك الخلافات أموراً طبيعية ، بل وضرورية في مدرسة كان من أشهر ما يُعرف عنها القول بسلطان العقل ورفض التقليد .

وهذا الخلاف لا يجب الصعود به إلى درجة نقض التوحيد والعدل ، وبذلك لا يكون هناك خوف على الأصول الاعتزالية من تلك الاختلاف ، لأنه لم يتعد - في الغالب الأعم - الفروع إلى الأصول ، لكن المتربصين سوءاً بامعتزلة قد بالغوا في تصوير هذه الخلافات مبالغاً شديدة ، حتى اشتهر الخلاف العميق بين مدارس المعتزلة ، والشهرة لا تكون - أبداً - دليلاً على الحقيقة^٢ .

الواصلية :

هم أصحاب واصل بن عطاء الغزال الأثني^٣ ، أبي حنيفة ، ويذكره المقرئ بأنّه قد كان مولى لبني ضبة ، وربما لبني مخزوم . وتجمع المصادر على أن نشأة

^١ د. أحمد محمود صبحي : الزهراء للإعلام العربي . القاهرة ١٩٨٤ م ط ٢ ص ٢٢٦ : ٢٢٦

^٢ د. البير نصري نادر : فلسفة المعتزلة . دار نشر الثقافة . الإسكندرية ١٩٥١ م ط ١ ج ١ ص ٢٠٢ .

^٣ لم يكن غزّالاً ، بل كان كثير الجلوس بسوق الغزل ، ليعرف النساء المتعصبات ، فيصرف لهن صدقته ، وكان يلثغ بالراء ، ومع ذلك فقد كان فصيحاً لساً مقتدراً ، فاسط حرف الراء من كل كلامه ، وقد سأل بعض السلف أبا هاشم عبد الله بن محمد س =

واصل قد كانت بالمدينة المنورة ، ثم انتقل منها إلى البصرة بعد أن تلقى العلم على يد أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية . ومعروف أن واصلًا هو أول من أذاع مقولة المنزلة بين المنزلتين ، ثم خالف الحسن البصري في ثلاث مسائل أخرى هي : نفى الصفات ، والقول بحرية الإرادة للمكلف ، والإقرار بخلود مرتكب الكبيرة في النار ، مع قوله إنه موحد وليس مشركاً .

وقد اعتبر البعض هذا القول الأخير موافقة من واصل للخوارج ، فسموهم " مخانيث الخوارج " ، وقد يطلق البعض عليهم " الحسنية " نسبةً إلى الحسن البصري . وينكر نشوان أن من مواطن الاعتزال بعض المدن في المغرب ، حيث انتقل الاعتزال إليها في ظل الدولة الرستمية ، ومن هذه المدن - كما يقول ياقوت - البيضاء ، وفيها آلاف من المسلمين يسمون الواصلية^١ .

العمرية :

هم أصحاب عمرو بن عبيد ، مولى بني تميم^٢ ، وينكر البغدادي أن عمرًا قد وافق واصلًا بن عطاء في كثير من آرائه ، خاصة في رد شهادة علي بن أبي طالب

=الحنفية : كيف كان علم محمد بن علي ؟ فقال للسائل : إذا أردتم أن تعلموا ذلك ، فانظروا إلى أثره في واصل . وقد قال رجل من أصحاب الحسن البصري : ما كنا نعد عليًا أيام واصل ملكًا . وقد فرق واصل رسله في الآفاق يدعون إلى دين الله . انظر : القاسي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٢٢ : ٢٧ .

^١ - المقريري : الخطط المقريرية . مكتبة المليجي . القاهرة ١٣٣٦ هـ ج ٤ ص ١٦٤ ، عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٩٧ ، الإسفرايني : التبصير في الدين ، ص ٤٠ ، الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٤٦ ، نشوان الحميري : الحور العين . تحقيق . كمال مصطفى . مكتبة الخابري . القاهرة ١٩٤٨ م ص ٢١١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان . طهران ١٩٦٥ م ج ١ ص ٨١٢ .

^٢ عمرو بن عبيد من أهل البصرة وأصله من كابل ، وهو من رواة الحديث ، كان معروفًا عنه شدة الرهد والتقوى والورع ، وكان الحسن البصري إذا رآه يقول : هو خير فتان البصرة ، وقد أوردت مصادر كثيرة أن عمرًا قد حج أربعين سنة ماشيًا وبغيره معه يركبه الفقير والضعيف ، وقد كان عمرو يحبي الليل كله في ركعة واحدة ، فعل ذلك أكثر من مرة ، وقد مدحه البعض فقال فيه : ليس هناك من يحفظ قول الحسن البصري غير عمرو بن عبيد ، وقال بعضهم : رأيت عمرًا بمكة قرأه كأنه حديث عهد بمصيبة ، ثم رأيتته بمنى قرأته كأنه أحضر للقدود ، ثم رأيتته بعرفة ورأيت رجلاً كأن البار لم تخلق إلا له . انظر : القاسي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، المقريري : الخطط المقريرية . ج ٤ ص ١٦٥ .

كرم الله وجهه وطلحة والزبير .إلا أن عمراً قد زاد على ذلك بتفسير الفريقين المتحاربين في صفين^١ .

الهذيلية :

أتباع أبي الهذيل العلاف ، من موالى عبد القيس ، ويذكر المقرئ في خطه أن أبا الهذيل العلاف قد أخذ العلم عن عثمان بن خالد الطويل وواصل بن عطاء ، وقد زاد على معرفته بمذاهب المعتزلة معرفته بمذاهب الفلسفة .ويذكر صاحب الملل والنحل أن من أصحابه أبا يعقوب الشحام والألمي^٢ .

النظامية :

هم أصحاب أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، يذكر البغدادي في " الفرق بين الفرق " أنه " ثاني قائد فكري بعد العلاف " وهو من تلاميذ أبي الهذيل العلاف ، وقد كان له اطلاع واسع على المذاهب الفلسفية ، وكان له أصحاب من الرافضة والخوارج والمرجئة ، ومن أصحابه الفضل الحنفي وأحمد بن خابط^٣ .

الأسوارية :

أتباع علي بن عمرو بن قائد الأسواري ، وذلك فيما يذكره كل من البغدادي في " الفرق بين الفرق " والمقرئ في " الخطط " ، ويذهب البعض إلى القول بأنهم أصحاب علي بن خالد الأسواري ، ويذكر عنه أنه كان من أتباع العلاف ، ثم انتقل إلى متابعة النظام ، وكان من أعظم المعتزلة في علم الكلام ، وهو شخص آخر غير

^١ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج. ١٢ ص ١٨٨ ، المقرئ : الخطط المقرئية ج. ٤ ص ١٦٥ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص. ١٠٠ ، ١٠١ ، الشهرستاني : الملل والنحل ج. ١ ص ٤٩ ، فخر الدين الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، تحقيق د. علي سامي النشار . مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٨ م ص ٤٠
^٢ الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص. ٤١ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص. ١٠١ ، الشهرستاني : الملل والنحل ج. ١ ص ٤٩ : ٥٣ ، البغدادي : تاريخ بغداد ج. ١٢ ص ٣٦٩ ، ابن الجوزي : تليس إبليس . مكتبة أنس بن مالك ، القاهرة ١٤٠٠ هـ ص ٨٢
^٣ الشهرستاني : الملل والنحل ج. ١ ص ٥٣ : ٥٩ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص. ١٠٣ : ١٠٩ ، الإسفراني : التبصير في الدين ص. ٤٣ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص. ١٤١

أبي علي بن قائد الأسواري - الذي نسب الفرقة إليه كل من المقرئزي والبغدادي - حيث هذا الأخير صاحب وعظ وتفسير^١.

الإسكافية :

أصحاب أبي محمد بن عبد الله الإسكافي ، تلقى العلم على يد أحد الجعفرين : جعفر بن حرب . وقد كان الإسكافي على قدر كبير من الدراية بأصول المعتزلة ، وقد نسبت إليه تنظيرات على جانب كبير من الأهمية ، كما كان حجة على مناظريه ، فكثيراً ما كان يناظر أصحاب الشافعي رحمه الله ، وكان يفوقهم^٢.

الجعفرية :

هم أصحاب الجعفرين : جعفر بن حرب الهمداني ، وجعفر بن مبشر الثقفي ، وقد أصبحا مضرب الأمثال في العلم والزهد ، حتى يقال مدحاً للرجل العالم الزاهد : في علم الجعفرين وزهدهما .

وقد تلقى كلاهما العلم على يد الإسكافي ، وقد قال جعفر بن مبشر بخط الإجماع على ضرب شارب الخمر ، في الوقت الذي أجمع فيه كثير من الفقهاء على تكفير من أنكر حد الخمر النفي^٣ ، هذا وقد اختلف معه الكثيرون حول جواز المغفرة لمرتكب الصغيرة إذا اجتنب الكبائر^٤.

البشرية :

هم أتباع بشر بن المعتمر الهلالي ، اختلف فيه أهل السنة والمعتزلة ، وإلى ذلك يذهب البغدادي في " الفرق بين الفرق " ، فقد أعلن بعض المعتزلة تخطئته ، بل وتكفيره ، في مسائل كان أهل السنة يرونه مصيباً فيها .

^١ البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١٠٩ ، الإسفرايني : التبصير في الدين . ص ٤٤ ، ٤٥ ، محمود أحمد عبد المنعم : تفسير المعتزلة للقرآن . مخطوط ماجستير . كلية الآداب . جامعة عين شمس ١٩٧٣ م ص ٢٥

^٢ البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ٢١٥ ، الإسفرايني : التبصير في الدين . ص ٤٨ ، المقرئزي : الخطط المقرئزية . ج ٤ ص ١٦٥

^٣ الحمر النبي هو عصر العنب ، إذا لم يطبخ على النار ، بل ترك يختمر لنفسه .

^٤ البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١١٤ ، الإسفرايني : التبصير في الدين . ص ٤٧ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . ج ٧ ص ١٢ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٦٩

الأصم بأن الإمامة لا تتعد إلا بإجماع الأمة عن بكرة أبيها . وإنما أراد بذلك الطعن في إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ كانت البيعة في أيام الفتنة ، من غير اتفاق من جميع الصحابة ، إذ بقي في كل طرف طائفة على خلافه ^١ .

الحائطية :

يذكرهم البغدادي في " الفرق بين الفرق " بقوله " فرقتان من جملة فرق الغلاة في الكفر ، وهم أتباع أحمد بن حائط ^٢ ، أحد أصحاب إبراهيم بن سيار النظام ^٣ ، ولأحمد هذا آراء وتطبيقات خطأ فيها البعض وكفره البعض .

المعمرية :

اتباع معمر بن عباد السلمي ، وقد ذكر المقرئزي أنه أكبر الغالين في رفع الصفات ، ورفض القدر خيره وشره من الله تعالى ، وقد زعم أن الله تعالى لم يخلق شيئاً سوى الأجسام ، وأما الأعراض فإنها من اختراعات الأجسام ، مما نفع الأشعري إلى القول عنه بأنه قال بتعجيز الله تعالى ^٤ .

الثمامية :

اتباع ثمامة بن أشرس ، مولى بني نمير . عاصر المأمون والمعتصم والوائق ، وقد ذهب البغدادي إلى أن ثمامة هذا هو الذي أغرى المأمون بأن دعاه إلى الاعتزال ، كما

^١ البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١١١ ، ١١٢ ، المقرئزي : الخطط المقرئزية . ج ٤ ص ١٦٦ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . ص ٧٢ : ٧٤ ، الإسفرائيني : التبصير في الدين . ص ٤٦

^٢ يذكروهم الشهرستاني بأنهم أتباع " أحمد بن خابط " انظر : الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٦٠

^٣ البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ٩٥ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٦٠ : ٦٣ ، الإسفرائيني : الخطط المقرئزية . ج ٤ ص ١٦٧

^٤ الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٦٦ ، الأشعري : مقالات الإسلاميين . ج ٢ ص ٥٤١ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١٠٩ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والنسب . ص ٤٢ ، المقرئزي : الخطط المقرئزية . ج ٤ ص ١٦٧ ، الإسفرائيني : التبصير في الدين . ص ٤٤

ذهب - البغدادي - إلى أن لثمامة آراء تتعلق بحال أهل الكتاب الذميين من الحساب يوم القيامة ، وكذلك حال الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ولم يجز عليهم القلم^١ .

الجاحظية :

هم أتباع عمرو بن بحر أبي عثمان ، المكنى بالجاحظ ، وينكر الشهرستاني أنه كان من فضلاء المعتزلة ، وكان له كثير اطلاع على الثقافات المختلفة مع براعة في التعبير ، مما جعله ينشر مذهب المعتزلة ومذاهب الفلاسفة بعباراته البليغة . وقد عاصر الجاحظ المعتصم والمتوكل ، وكان الجاحظ تلميذاً للنظام ، وقد شايعه في قوله إن القرآن جسم وإن الأصوات جسم وهي قابلة للتحيز . وله شروح كثيرة في المعارف الطبيعية ، مما حدا بالبعض إلى ضمه لمشايخي ثمامة بن أشرس في هذه المسألة^٢ .

الخياطية :

هم أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط ، صاحب كتاب " الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد "^٣ دافع فيه عن المعتزلة وبرأهم مما رماهم به ابن

^١ - البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١١٥ ، المقرري : الخطط المقريرية . ج ٤ ص ١٦٧ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٧٠ ، ونشر مصادر غير قليلة إلى أن ثمامة قد كان واحداً من الشخصيات الهامة في الحياة العقلية في الإسلام ، وقد طاله أذى كبير في عهد الرشيد ، إلا أنه استطاع أن يجعل لنفسه مكاناً مرموقاً أيام المأمون ، وكانت له اليد العليا في توجيه سياسة الدولة ، كما كانت له اتصالات بكل من أبي الهذيل العلاف وجعفر بن يحيى البرمكي والفضل بن سهل ، لكن حصومه يرون أنه كان - مع كثرة أتباعه - كثر الأعداء ، خاصة من أهل الحديث ، مما دفعهم إلى التشنيع به ... ف قيل فيه " هو من رقة الدين وينقص الإسلام والاستهراء به وإرساله لسانه ، على ما لا يكون على مثله رجل يعرف الله تعالى ويؤمن به ، وقد رأى قوماً يعبادون يوم الجمعة إلى المسجد لحوقهم فوت الصلاة ، فقال : انظروا إلى البقر ، انظروا إلى الحمير !!! ثم قال لرجل من إخوانه : ما صنع هذا العربي بالناس " ؟! انظر : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : تأويل مختلف الحديث . تحقيق : محمد رهدى النجار . دار الجيل . بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٢ م ص ٤٩ ويذكر أن ابن قتيبة والبغدادي من المنحاملين على المعتزلة .

^٢ - الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٧٥ ، المقرري : الخطط المقريرية . ج ٤ ص ١٦٨ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١١٧ ، ١١٨ ، الرأي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركن . ص ٤٢ ، الإسعرابي : التبصير في الدين . ص ٤٨

^٣ - لابي الراوندي هذا كتب تطعن في الإسلام ، رد عليها الخياط وغيره من رجال المعتزلة ، لكن أشهر هذه الردود لحدّها في كتاب الخياط " الانتصار " . ومما كتبه ابن الراوندي : التاج .. ويحاول فيه إثبات قدم العالم ، الدماغ .. ويطعن فيه على إعجاز القرآن =

الراوندي . والخياط هو شيخ أبي القاسم الكعبي ، وكلاهما من معتزلة بغداد ، وقد جعل الخياط " المعدوم شيئاً " وغالى في ذلك حتى ذهب إلى القول بأن الشيء هو ما يُعلم ويُخبر عنه . وإذا قلنا إن الكعبي قد كان تلميذاً للخياط ، فإن الكعبي قد انفرد عن أستاذه بعدة مسائل منها اعتباره بأحاديث الآحاد ، في حين أن الخياط لم يعتبر بها طالما تعارضت مع أدلة العقول . ومن قول الخياط بالمعدوم شيئاً ، أطلق البعض على المعتزلة " المعدومية " ^١ .

الجُبائية :

أتباع أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، وهومن معتزلة البصرة ، بل هو شيخهم وأبو شيخهم عبد السلام الجبائي ، المكنى بأبي هاشم . وقد كان فقيهاً زاهداً ورعاً ، وكان من أساتذته الشحام ، وكان من تلاميذه إمام الأشاعرة أبو الحسن الأشعري ، حيث كان الجبائي زوجاً لأمه فرباه وعلمه الاعتزال ، ثم تركه الأشعري وأسس مذهب الأشاعرة معارضاً به المذهب الاعتزالي ^٢ .

البهشية :

=الكريم ونظمه ، الرمرد .. يحاول فيه إبطال الرسالة ، نعت الحكمة :.. تعدى فيه بشكل سافر وفتح ، فنسب إلى الله - تعالى - ما لا يليق به سبحانه ، الفضيح .. يحاول فيه بيان عدم علم الله تعالى ، فيدعي أنه - حل وعلا - ذو علم حادث ، فهو - سبحانه وتعالى - لم يكن عالماً ثم علم ، المرجحان .. يتكلم فيه بتوسع عن اختلافات فرق المسلمين . انظر : القاصي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ٢٢ ، القاصي عبد الجبار : المعنى في أبواب التوحيد والعدل . ج ١٦ " إعجاز القرآن " تحقيق : أمين الخولي مصر . مواضع محلفه ، على فهمي خسيم : الجبائيان . مكتبة الفكر . ليبيا ١٩٦٨ م ط ١ ص ٢١٥ وما بعدها .

^١ السهرسباني : الملل والنحل . ج ١ ص ٧٦ ، المفريزي : الخطط المقريرية . ج ٤ ص ١٦٨ ، العدد : الفرق بين الفرق . ص ١١٨ ، ١١٩ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين ص ٥١ .
* السهرسباني : الملل والنحل . ج ١ ص ٧٨ ، ٨٥ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٣١ ، المفريزي : الخطط المقريرية . ج ٤ ص ١٦٨ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمسلمين . ص ٤٢ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . ج ١١ ص ٥٥ ، الإسفراني : التبصير في الدين . ص ٥١ .

أتباع أبي هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي ، وهوابن الجبائي الكبير ، أخذت عنه البصرة مذهب الاعتزال^١ .

هذا ... وهناك فرق ينسبها البعض إلى المعتزلة ، لكن كتب الفرق لا تذكر بعضها وتضرب صفحاً عن البعض الآخر .

إلا أن ما ذكر من الفرق الاعتزالية يمثل أهم وأخطر الفرق المعتزلية ، والتي تركت أثراً واضحاً على الساحة الفكرية في عصرها وفي العصور التالية .

??????

رابعاً : مفهوم العقل عند المعتزلة :

لا شك في أن العقل يمثل شيئاً ثميناً عند المعتزلة ، والناظر في آيات القرآن الكريم يجد لها ميزة لا يقع بسببها خلاف بين مسلم ومسلم ، وقلماً يقع بسببها خلاف بين مسلم وغير مسلم : تلك هي اعتماد القرآن الكريم - أولاً وقبل أي شيء آخر - على العقل وتوحيه به وتعويله عليه ، خاصة في أمور العقيدة والمسئولية والتكليف . والقرآن الكريم ليس يذكر العقل على سبيل الإشارة العارضة ، بل هو يذكره في مقام التفتيح والتنبيه إلى فرضية العمل به والرجوع إليه والرضا بأحكامه^٢ .

ولقد كان القرآن الكريم منبهاً على رفعة شأن العقل ، ومن ثم فقد أطلق القرآن الكريم للفكر ما شاعت قدرته عظمت واستدلالاته ، ولذلك جاء القول " ما قولك في دين يقول أئمنته بتبرجيح العقل على ظاهر الشرع عند التعارض "؟^٣

^١ الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٧٨ : ٨٥ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٢١ ، المقرئ : الخطط المقرئية ج ٤ ص ١٦٨ .

^٢ عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية . دار النهضة مصر . القاهرة . ص ٢ .
^٣ محمد كرد علي : الإسلام والحصار العربي . دار الكتب ١٩٣٤م ج ٢ ص ٤٠ ، وإذا كاتب دعوة الإسلام - في جوهرها - يدعو إلى تحكيم العقل في مجالات الفكر ، والعقل في مجالات السلوك البشري والمعاملات ، فإن المسلمين منفقون على أنه لا تعارض بين الوحي والعقل ، حيث إن هناك فئاعه بأن العقل ثبت العقل . والإسكالية التي حدثت بعد ذلك هي : هل للعقل فعالية بعد أن أثبت صحة العقل ؟ وفي هذا المجال نجد المعتزلة تعطى العقل حق العفالية في فهم النصوص وتأييدها ، فلقد قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بأن النصوص ليست تفصح بذاتها عن معناها ، ولكن ينطق بها الرجال . بينما نجد فرقاً كلامية أخرى أقدمت على إلغاء العقل لحساب فهمها للنص . ولنسطر مثلاً على قيمة العقل في الإسلام وفهم المقاصد البعيدة للشرعة ، ما فعله

وفي ذلك يقول الدكتور أبو ريذة : ظهرت من المعتزلة منذ أول أمرهم لزعة إلى الاعتماد على العقل وإلى إقامة سلطان له إلى جانب النصوص المنزلة ، فحكموه في آرائهم ، وبالإجمال في معرفة الله وصفاته وأفعاله ، وفي الحسن والقبح في الأفعال وغير ذلك ، وظهر منهم الاستقلال في الرأي في كثير من المسائل ، ولذلك يسميهم الباحثون الأوروبيون : أصحاب المذهب العقلي ، أو المفكرين الأحرار^١ .

موقف المعتزلة من القرآن الكريم :

لقد كان أمراً متوقفاً من المعتزلة ، بعد أن طالعوا كتب الفلسفة ، أن يقيموا مقام العقل إلى جانب مقام النصوص المنزلة ، ومن ثم راحوا يسعون إلى تقييم الوجود

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين أدرك المقصد البعيد للتشريع الإلهي في "سهم = المؤلف قلوبهم" حيث هم بعض من تصح لهم الصدقات ، لقوله تعالى في الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليهم حكيم" وفي ذلك جاء القول "سهم المؤلف قلوبهم : هو سهم قد نص عليه القرآن الكريم في آية توزيع الزكاة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطيهم - وهم كفار ، أو ليسوا على إسلام صادق بل متأرجحين - لتألف بالعتاء قلوبهم ، وطالما استعبد الإنسان إحسان ، فيكفوا عن المسلمين شرهم ، وليكسب ودهم أو لسانهم ، وربما حبهم وإسلامهم . بروي سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الخلق إلي . وسار أبو بكر رضي الله عنه في خلافته على ما سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءه عبيدة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، فسالأبا بكر : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سيخة ليس فيها كلاً ولا منفعة ، فإن رأيت تعطيناها ؟ فأقطعهما أبو بكر إياها ، على أنهما من المؤلف قلوبهم ، وكتب لهما كتاباً بذلك ، وأشهد عليه ، ولم يكن عمر حاضراً ، فذهب إلى عمر ليشهد ، فعارض عمر ذلك بشدة ، ومحا الكتابة .. فتندما وقالا مقالة سوء ، فقال لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أعنى الإسلام ، فاذهبا فاجهدا جهدكما ، لا يرعى الله عليكما إن رعيتهما " انظر : د. عبد المنعم النمر : الاجتهاد . دار الشروق . القاهرة . ص ٩٣ وما بعدها . ثم يقول صاحب "الاجتهاد" : الشاهد هنا أن عمر أوقف حكماً كان مستقراً في أيام الرسول ، وجزء من خلافة أبي بكر ، بناءً على اجتهاد له في سبب إعطاء هؤلاء ، حيث اعتبر أن السبب الآن غير قائم ، فلا داعي للإعطاء ، والحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا كما عرفنا ، فعمر رضي الله عنه لم يقف جامداً عند حدود النص وظاهره ، ولا حدود الفعل ، بل عاص إلى سببه وعلته ، وحكم - اجتهاداً منه - في فهم الحكم على ضوء ظروف الإسلام ، حين صار قوياً في غير حاجة إلى تأليف قلوب هؤلاء . انظر : د. عبد المنعم النمر : الاجتهاد . ص ٩٢ ، انظر في التفسير : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح رطبي : تفسير القرطبي . تحقيق . أحمد عبد العليم البردوني . دار الشعب . مصر ١٣٧٣ هـ ٢ ط ج ٨ ص ١٧٨ : ١٨١

على أساس الحكم العقلي ، وذلك كله مسعى منهم لوقف الاتجاهات الهدامة التي كانت تحاول النيل من الإسلام ، بل وهدمه ، متمثلة تلك الاتجاهات - أكثر ما تكون - في الفكر البراهمي الذي أراد إظهار عدم جنوى الشريعة والشارع معاً ، من خلال تداعيات عقلية ضعيفة واهية^١ ، مما جعل واصلاً بن عطاء يعتبر العقل مصدراً لمعرفة الحق ، إلى جانب الكتاب والسنة والإجماع ، فيما عُرف بـ " الأئنة " ، وكذلك ما حدا بعمر بن عبيد أن يقول : إن الدين هو تقرير حجة الله في عقول المكلفين^٢ .

يقول صاحب بن عباد^٣ : الأصول الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والصدق في الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نلزمنا التدبر والتمييز لنعرف الصحيح من السقيم . قال تعالى : أفلا يتدبرون القرآن . وقال تعالى : فاعتبروا يا أولي الأبصار^٤ .

ويقول الجاحظ : لولا أن الله تعالى أراد تشريف العالم بتربيته وتسويد العقل ورفع قدره ، وأن يجعله حكيماً وبالعواقب عليمًا ، لما سخر له كل شيء ولم يسخره لشيء ، ولما طبعه الطبع الذي يجنيء منه أريب حكيم وعالم حليم^٥ .

^١ أبو بكر الباقلاني : التمهيد في الرد على الملحدة والرافضة والخوارج والمعتزلة . تحقيق . محمود الخصري ، د. محمد عبد الهادي أبو ريدة . لجنة التأليف والترجمة والنشر . مصر ١٩٤٧ م ص ١١٩ وما بعدها .

^٢ ابن عبد ربه : العقد الفريد . تحقيق . محمد سعيد العريان . مطبعة الاستقامة . مصر ١٩٤٠ م ج ٢ ص ٢٦٨

^٣ صاحب بن عباد هو أول من لقب بـ "الصاحب" لأنه صاحب مؤيد الدولة بن بويه منذ صباه ، وسماه الصاحب ، فاستمر هذا اللقب ملازماً له واشتهر به ، وقيل إنه لم يسعد أحد في وفاته كما في حياته غير الصاحب بن عباد ، فإنه لما توفي أغلقت له مدينة الرقي ، وقعد فخر الدولة للعزاء فيه إياماً ، ومشى أمام جنازته مع الناس الذين قبلوا الأرض عند خروج النعش . انظر : القاضي عبد الجبار : المسية والأمل ، ص ٩٤ ، القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف ، ص ٤٢٩

^٤ الصاحب بن عباد : التذكرة في الأصول الخمسة . تحقيق . محمد حسن آل ياسين . العراق ١٩٥٤ م ص ٨٧

^٥ الجاحظ : رسائل الجاحظ . تحقيق . عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٦٤ م ص ١٢٥

ويقول : إن الأمور حكمين : حكماً ظاهراً للحواس ، وحكماً باطنياً للعقول ، والعقل هو الحجة ، فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل^١ . وهكذا خرج المعتزلة بنيانهم العقلي في معرفة أصول الدين وحقائق التفسير . وإلى ذلك يشير القاضي عبد الجبار ... فيقول : اعلم أن النظر لا يُراد لنفسه ، وإنما يُراد لما يوصل إليه من المعرفة^٢ .

ومع ذلك كله ، فإن المعتزلة لم يُطلقوا للعقل سلطانه ... هكذا ، ولم يجعلوه فيصلاً مطلقاً ، إنما أضافوا إليه حججاً أخرى ثلاث هي : الكتاب والسنة والإجماع ، فيما عُرف عندهم بـ " الدليل " وذلك كله عبارة عن مجموعة من العلوم الضرورية المركوزة في عقول الناس من الحجج والبراهين^٣ .

يقول الجاحظ : إن الحجة حجتان : عيان ظاهر ، وخبر قاهر . والعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال أحدهما وجه مع إيجاب الآخر . والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان : شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجيء خبر يدل على صنفه^٤ .

وليس من شك في أن المعتزلة هم أول المتكلمين - على الإطلاق - في حفظ العقل في التاريخ الإسلامي^٥ وفي القول بالدليل السمعي بعد اعتمادهم على الدليل

^١ الجاحظ : الحيوان . تحقيق ، عبد السلام هارون . مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٢٨ م ج ١ ص ٢٠٧ ، وعن بعض المواقف المعاصرة من العقل ودوره وحدوده ومجال فعاليته - إسلامياً . انظر : سيد قطب : نحو مجتمع إسلامي ، بدون تاريخ . بدون مكان نشر . ص ١١ وما بعدها .

^٢ القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف . ص ٣٣

^٣ ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . تحقيق . أبو الفضل إبراهيم . مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٩ م ج ١ ص ١١٧ ، صالح المقبلي : العلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايخ . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٣١٨ هـ ط ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧

^٤ الجاحظ : حجاج السوء . ضمن الرسائل . جمع . السديوي . المكتبة التجارية . مصر ١٩٢٣ م ط ١ ص ١١٨

^٥ القاضي عبد الجبار : المعنى في أبواب التوحيد والعدل . ج ١ " التكليف " تحقيق د. محمد علي النجار . ص ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، جولد تسيهر : العقيدة والشرعية في الإسلام . ترجمة . د. محمد يوسف موسى ، د. علي حسن عبد القادر ، عبد العزيز عبد الحق . دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٥٩ م ط ٢ ص ١٠٣

العقلي ، مما نفع بالقاضي عبد الجبار إلى أن يقدم الدليل على المذهب وليس العكس صحيحاً ... فيقول : فإننا لم نجعل اللقب دلالة على أن مذهبنا حق ، بل صحة المذهب تتبع صحة الدليل^١ ، ويقول : إن كل دلالة تنصب لإفساد مذهب من المذاهب ، فالاعتراض على تلك الدلالة ينفي تلك المذهب لا يصح^٢ .

والأدلة عند المعتزلة نوعان : أدلة عقلية ... بمثابة شاهد عيان يدل على غائب ، وأدلة سمعية شرعية ... بمثابة الخبر الدال على صنف^٣ .

كما أن الأدلة من حيث العدد أربعة : دلالة العقل ، ودلالة الكتاب ، ودلالة السنة ، ودلالة الإجماع ... وفي تفصيل ذلك وبيان علة تقديم العقل يقول القاضي عبد الجبار : وإذا قد عرفت ذلك فاعلم أن الدلالة أربع : حجة العقل ، وحجة الكتاب ، وحجة السنة ، وحجة الإجماع . ومعرفة الله تعالى لا تنال إلا بحجة العقول^٤ .

وليبيان علة تقديم العقل والتعويل عليه ، يقول صاحب بن عباد : فلو أسقطنا شهادة العقول لما وجبنا سبيلاً إلى المعرفة بالواحد الأحد^٥ .

ورغم كل ما تقدم ، فإن المعتزلة لم يقدموا العقل على الشرع بتقديم تشريف - كما هو شائع عنهم - ذلك لأن المعتزلة لا يجعلون العقل فوق الشرع ، بل هم يعتبرون القرآن الكريم هو الأصل ، ذلك لأن فيه " التنبيه على ما في العقول ، بل إن فيه الأدلة على الأحكام " ^٦ .

^١ القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال ، ص ١٦٧

^٢ القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ٢٥٢ ، أبو رشيد النيسابوري : المسائل في الخلاف ، ص ٥٠

^٣ القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ج ١٥ " التنبؤات والمعجزات " تحقيق : محمود الخصري ، د. محمود قاسم ، القاهرة ١٩٦٥ م ص ١٥٢

^٤ القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ص ٨٨ ، القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال ، ص ١٢٩ ، د. محمد عمارة : رسائل العدل والتوحيد ، ج ١ ص ٢٠

^٥ صاحب بن عباد : رسالة في الهداية والصلاة ، تحقيق : حسين علي محفوظ ، طهران ١٩٥٥ م ص ٤١

^٦ القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال ، ص ١٢٩

والاختلاف هنا اختلاف لفظي ، فإذا كانت الأحكام معلومة بالعقل نسبت إليه ، قيل هي أحكام عقلية ، إذا كانت تُعلم بالسمع قيل هي أحكام سمعية . وطبيعة الأحكام لا تتغير وإن انقسمت الإضافة لانقسام الأدلة التي بها تُعلم^١ .

وكل ما يمكن قوله هنا هو أن تقديم العقل على باقي الأدلة عند المعتزلة إنما كان نزوعاً منهم نحو نشدان العمومية والإطلاق ، وطبيعي أن ذلك " الإطلاق " وتلك " العمومية " لا يتحققان في أمر إلا إذا كان ذلك الأمر " عقلياً " !! بمعنى " أن أي حكم يطمح إلى شمول القبول أو الوجوب ، ينبغي أن يدخل في إطار المعايير التي أقرها العقل " ^٢ .

موقف المعتزلة من السنة النبوية المطهرة :

وإذا كنا قد أوضحنا موقف المعتزلة من القرآن الكريم - وهو موقف ملؤه التقديس والاحترام - فيجب أن نوضح موقفهم من السنة النبوية المطهرة ، وهي المصدر الثاني للتشريع في الإسلام^٣ .

^١ القاضي عبد الجبار: المعنى في أبواب التوحيد والعدل ج. ١٧ "الشرعيات" تحقيق أمين الخولي. القاهرة ١٩٦٢م ص ١٠١
^٢ حسني زينة: العقل عند المعتزلة . تصور العقل عند القاضي عبد الجبار . دار الآفاق الجديدة . بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م ط ١ ص ٥٤ ، وإذا كان مما استوجب نقد المتكلمين اعتماد بعضهم على أصول سوفسطائية جاحدة لكثير من الضروريات ، مثل "ثبوت الأعراض ، وتأثير الأشياء بعضها في بعض ، ووجود الأسباب الضرورية للمسببات ، والصور الجوهرية ، والوسائط ، ووجود الطباع والقوى ، ورفع الضروريات الموجودة في طبيعة الإنسان وجعلها من باب الممكن ، وإنكار الأسباب المحسوسة الفاعلة ، وإنكار الضرورة المعقولة بين الأسباب والمسببات " ، فإن هذا النقد - حرفياً - لا ينطبق على الفكر الاعتزالي ، بل هو على الفكر الأشعري منطبق ، لأن الفكر الاعتزالي " قد بلغ من الدقة والسمو مبلغاً كبيراً " . انظر: د. محمد عاطف العراقي: النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ص. ١٦ ، ١٦٤

^٣ يريد أن نفرق تفرقة إجرائية بين الشرع والفقه: فالشرع هو ما يؤخذ مباشرة من الله تعالى ، من خلال آيات القرآن الكريم ، أو من الرسول صلى الله عليه وسلم ، من خلال السنة النبوية المطهرة . أما الفقه فهو ما يضعه الفقهاء وما يصوغه الشراح ويعسره المفسرون . ومن هنا يمكن القول بأنه بينما الشرع - باعتباره منزلاً من عند الله تعالى سواء في القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة - مصون لا يمكن أن يخطيء ، فإن الفقه - باعتباره عملاً من أعمال البشر - غير مصون ولا محصن ضد الخطأ ولا مقدس ولا معصوم ، لأنه رأي بشر قال أو عمل به ، تبعاً لفهمه هو ، ونتيجة لازمة لظروف بيئية معينة لا يستنه وعاشسته . لهذا نستطيع القول بأن الشريعة - في الجوهر - منهاج يسعى إلى الكمال ، ولذا فلا تعارض بينها وبين العقل ، والشريعة - بمعنى أدق - تجمع العوائد =

يقول القاضي عبد الجبار : التمسك بالسنة طريقتنا^١ .

ويقول نافياً عن نفسه - وعن المعتزلة - كراهة الحديث : معاذ الله أن نقول ذلك^٢ .

والحقيقة التي يمكن أن ينتهي إليها الباحث المنصف في الفكر الاعتزالي ، هي أن المعتزلة لم يكرهوا الحديث ، بل كرهوا رواية الحديث دون تدبر . وفي ذلك يقول

=، ولهذا فقد صدق من قال إن الفقه ليس هو الشرع بالضرورة ، تأسيساً على أن كل ما تأتي به الشريعة يكون تابعاً للعوائد ، وهو - لهذا - يتغير حكمه إذا ما تغيرت عادة قديمة إلى عادة جديدة ، لأن الفقه - في مجمله - اجتهد لاستنباط الأحكام يقوم على أساس العقل والرأي ، وهو - بهذا الوصف - غير ملزم إلا حين يقضي إلى مصالح ملموسة واقعاً في أرض الناس ، وهذا معناه - أيضاً - أن الفقه ليس الكتاب ولا السنة ، لأنهما - وحدهما - المصدران الإلهيان ، أما هو - الفقه - فعمل من أعمال هذا الفقه أو ذاك ، ومن هنا فقد جاء "إن الشريعة الإسلامية - إذا - ناسه لا تنعير ، لأنها ترسم إطاراً واسعاً شاملاً يتسع لكل طور ، أما الفقه الإسلامي فمضيق ، لأنه يتعلق بتطبيقات قانونية لتلك المبادئ العامة في القضايا والأوضاع المتجددة التي نسا من تطور الحياة وتغير العلاقات ويحدد الحاجات " انظر : سيد قطب : كيف تستوحي الإسلام ، سلسلة محاضرات من الفكر الإسلامي المعاصر . مكتبة الجريد . القاهرة . ص ٥٧ ، المستشار : محمد سعيد العشماوي : الربا والفائدة في الإسلام ، دار سينا للنشر ، القاهرة ١٩٨٧ م ط ١ ص ٢٧ ، ٢٨ ، ويريد - سعيًا وراء ثقافة معرفية فقهية - أنه لما كانت الأصول الشرعية الدالة تنحصر - في المقام الأول - في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فإن استنباط الأحكام منها استلزم توليد الإجماع والقياس ، وهذا استلزم - بدوره - اختلاقاً أدى - أخيراً - إلى ظهور مذاهب فقهية عديدة أشهرها المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة والمعتمدة ... وهي : المذهب الحنفي ... نسبة إلى أبي حنيفة النعمان " ٨٠ : ١٥٠ هـ " وهذا المذهب يعد أول المذاهب الفقهية الأربعة وأكثرها أخذاً بمبدأ القياس . ثم المالكي ... نسبة إلى مالك بن أنس " ٩٥ : ١٧٩ هـ " الذي يمكن اعتباره أول من فتح باباً فقهياً جديداً هو عمل أهل المدينة . ثم الشافعي ... نسبة إلى محمد بن إدريس الشافعي " ١٥٠ : ٢٠٤ هـ " الذي يمكن القول بأنه بعد أول واضع لعلم أصول الفقه . ثم الحنبلي ... نسبة إلى أحمد بن حنبل " ١٦٤ : ٢٤١ هـ " الذي - ربما - تكون مشكلة خلق القرآن قد جعلت منه أسطورة في نظر جمهور عريض من المسلمين ، علاوة على مذاهب فقهية أخرى أقل شهرة عن تلك الأربعة ... وهي : مذهب الشيعة ... الذي أقيم - في الأساس - على تناول بعض الصحابة رضي الله عنهم بالقدح ، وعلى القول بعصمة الأولياء الشيعة ورفع الخلاف عن أقوالهم . ومذهب الظاهرية ... صاحب التشدد المعروف في ضرورة الأخذ بحرفية النص الدال ، ورفض - بل وتبذير - الرأي . ومذهب كل من الأوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد وسفيان بن عيينة والطبري ، انظر للتفصيل وفي مواضع مختلفة : ابن خلدون : المقدمة ، أحمد أمين : طهر الإسلام . ج ٢ ، ابن حلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ، ج ٢ ، محمد باسر شرف : الوحدة المطلقة عند ابن سبعين ، بغداد ١٩٨١ م

^١ القاضي عبد الجبار : فصل الاعتزال . ص ١٥٦

^٢ القاضي عبد الجبار : المصدر السابق . ص ١٩٤

القاضي عبد الجبار : إذا كان قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كراهة قراءة القرآن بدون تدبر وتأمل ، فالحديث بذلك أولى^١ .

ومن هنا فإن تدقيق المعتزلة يكون منصباً - وبالأساس - على السند ليرى فيه ما يصح وما لا يصح ، لأن " من حدث عن غيره بما لا يعلم أنه قد سمع عنه ، إما على جملة أو تفصيل ، فهو مقدم على قبيح لا يحل منه ذلك " ^٢ .

ذلك كله لأن المعتزلة تجعل العمل عندهم " على أدلة العقول التي لا تحتل وعلى أدلة السنة القاطعة " ^٣ .

وإلى ذلك - أيضاً - يشير أبو رشيد النيسابوري بقوله " إننا لا نجوز شيئاً لا يُعقل ، وإنما نجوز ما هو معقول " ^٤ .

ولذلك فإننا نجد عند المعتزلة موقفاً جديراً بالاعتبار متعلقاً بـ " أحاديث الآحاد " ^٥ يحرصون من خلاله على تمييز النص المنقول حتى لا يكون هناك في الحديث

^١ القاضي عبد الجبار : فصل الاعتراف . ص ١٩٤

^٢ القاضي عبد الجبار : المصدر السابق . نفس الموضوع

^٣ القاضي عبد الجبار : المصدر السابق . ص ١٩٥

^٤ أبو رشيد النيسابوري : ديوان الأصول ، تحقيق . د. محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ١٩٦٩ م ص ٣٠٥

^٥ أحاديث الآحاد هي الأحاديث التي تكون غير متواترة ، أو التي تُروى عن واحد فقط وليس عن جماعة ، أو عن أكثر من واحد ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، على ما أثبتت كتب السيرة والتاريخ ، دائماً في جماعة من أصحابه ، وعلى الدوام في جمع منهم ، بل إنه قد روي عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، عدت أنا وأبو بكر وعمر . أي أنه كان دائماً مخاطباً بأصحابه ، كما كان في الغالب مصاحباً بأبي بكر وعمر ، وكان - صلى الله عليه وسلم - على الدوام .. وخاصة فيما يتعلق بشؤون العبادات والمعاملات بكرر على أصحابه الأحكام حتى يعوها ويفقهوها عنه . ومن ثم فبحر الآحاد غير بحر التواتر ، وهو - الآحاد - ما عدم شروط التواتر أو بعضها ، بأن كان إخباراً عن غير محسوس ، أو رواية ممن يحور عليه الكذب عادةً ، لكونه واحداً في الحقيقة ، أو جماعة لا يمتنع نواظورهم على الكذب عادةً ، أو كانوا ممن يستحيل منهم الكذب عادةً ، لكن في بعض طبقاته دون بعض . وفي العلم به قولان : الأول : لا يحصل به العلم .. وهو قول الأكثرين ، والثاني : يحصل به العلم .. وهو قول جماعة من المحدثين وبعض أهل الظاهر . وهذا معناه أن مسألة العلم من بحر الآحاد انقسم فيها الناس قسمين : منهم من يعني حصول العلم بحر الآحاد ، ومنهم من أثبتته . والمثبتون : منهم من طرد ذلك في جميع أخبار الآحاد ، ولم يخصه بواحد معين ، كبعض أهل الظاهر ، ومنهم من خصه بأخبار بعض الآحاد كالشيخين وبحوهم ، أو ببعض أخبار الآحاد كأخبار الرؤية والقدر والجهة والشفاعة وبحوهم ، وأحتمل الأمدى أنه إنما يفيد العلم مع القرائن لا بدونها . انظر في تفصيل ذلك : نجم الدين سليمان الطوفي : شرح مختصر الروضة . تحقيق =

النبوي الشريف روايات ليست منه ، وذلك كله أدى بهم إلى " إخضاع الخبر المروي للنقد إلى أن تثبت صحة إسناده إلى الرسول " ^١ .

ويذهب المعتزلة إلى القول بأنه في أحاديث الأحاد " لا ينبغي قبول أي منها إذا خالف الكتاب والسنة المقطوع بها " ^٢ .

وقد دفعهم مذهبهم هذا إلى القول بأنه " لا يجوز لأحد أن يقول في خبر الأحاد : قال الرسول قطعاً ، وإنما يجوز أن يقول : روي عنه ذلك " ^٣ .

?????????

= د. عبد الله عبد المحسن التركي . الرياض . ج ٢ ص ١٠٣ وما بعدها ، أبو الحسين البصري : المعتمد في أصول الفقه . جمع الشيخ خليل الميس . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٣ م ط ١ ج ٢ ص ٩٢ وما بعدها ، المنشور محمد سعيد العنماوي . الربا والفائدة في الإسلام . ص ٣٥

^١ حسني رينة : العقل عند المعتزلة . ص ١١٩

^٢ القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال . ص ١٩٤

^٣ القاضي عبد الجبار : المصدر السابق . ص ١٨٦

الفصل الثاني :

مدرستنا البصيرة وبغداد :

الإرهاصات والدواعي ومسائل الخبرة

الفصل الثاني : مدرستا البصرة وبغداد : الإرهاصات والدواعي ومسائل الخلاف

أولاً : الإرهاصات والدواعي

ثانياً : بعض رجالات المعتزلة في البصرة

واصل بن عطاء

عمرو بن عبيد

أبو الهذيل العلاف

إبراهيم بن سيار النظام

الجبائيان : أبو علي وأبو هاشم

ثالثاً : بعض رجالات المعتزلة في بغداد

بشر بن المعتمر

أبو موسى المرءار

الجعفران : ابن حرب وابن مبشر

الإسكافي

رابعاً : الخلاف بين المدرستين

حقيقة الخلاف عند كل من المشايخين والمخالفين

من صور الخلاف

توصيف الخلاف

أولاً : الإرهاصات والدواعي :

الخلافاً بين المعتزلة بعضهم وبعض ، وإن عنف في مسألة وهدن في مسألة أخرى ، فهو قد كان خلافاً في قضايا هي بطبيعتها تحتمل الخلافاً ، ومن ثم يصبح هذا الخلافاً - فيما نرى - محسوباً للمعتزلة وليس محسوباً عليهم ، ذلك لأن المعتزلة هم الداعون إلى نبذ التقليد ، ولو كان للأكثرية ، إذ التقليد "لاحقيقة وراءه" ^١ . وقد نعلم أن واصل بن عطاء هو الذي أسس مدرسة الاعتزال في مدينة البصرة العراقية ، واستمرت زعامة الاعتزال معقودة لمدرسة البصرة الاعتزالية ، إلى أن أسس بشر بن المعتمر مدرسة بغداد الاعتزالية في بغداد ^٢ ، وكلا المدرستين تذهب إلى القول بالأصول الاعتزالية الخمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ذلك لأنه "لايستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة ، فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو معتزلي" ^٣ .

وكما صرنا هذا الفصل بالقول بأن اختلاف المعتزلة اختلاف فيما هو بطبيعته قابل للخلاف ، إلا أننا نجد أعداء المعتزلة وقد صوّروا ذلك الخلاف على غير صورته الفكرية ^٤ .

لكن الأمر يظهر على صورته الحقيقية إذا ما عرفنا أن المعتزلة مدرسة فكرية تنزع - دوماً - إلى جانب العقل ، والعقل - بطبيعته - موجد للخلاف ، إذ أنه أداة للتفكير لا التقليد ، وإلى هذا الأمر يشير المفسر بقوله " كما لاتجد اثنين على صورة واحدة وصبغة واحدة وهمة واحدة ، إلا في الشاذ النادر ، فكذلك في وجود اثنين على

^١ - مطهر بن طاهر المقدسي : البدء والتاريخ ، مصر ١٩٠٧م ج٤ ص ١ ، ٢ ،

- لعاصي عبد الحبار : المسبة والأمل ، ص ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

- لعاصي عبد الحبار : فصل الاعتزال ، ص ١٢٩ ، ٢٤٦ ، الحياط : الانتصار ، ص ١٢٧ ،

الملصق : السبب والرد ، ص ٢٨ ،

نسبى : العلم الشامخ ، ص ٧١ ،

رأي واحد وخاطر واحد " ^١ ، ويقول : وإذا كان الدين الواحد يجمع عالماً من الخلق ، فإن الآراء تتوزعهم والهمم تتشعب بهم ^٢ .

وعندما نعرض لمن درسوا خلاف المعتزلة ، نجد هؤلاء الدارسين وقد تأولوا الخلاف الذي قد كان بين مدرسة البصرة ومدرسة بغداد ، فنجد منهم من يجعله مجرد خلاف في الفرعيات لا يطعن في العقيدة الاعتزالية نفسها ^٣ ، بينما نجد مؤرخين آخرين قد ذهبوا إلى تصعيد الخلاف إلى درجة اللاعودة ، إذ يُعتبر عندهم خلافاً في الأساسيات لا في الفروع الثانوية ^٤ .

ونحن لا نقلل من أثر تلك الخلاف - فضلاً عن نفيه - ويكفي للتدليل على ذلك ، أن أبا رشيد النيسابوري - موضوع هذا المؤلف - قد أقر ذلك الخلاف كتاباً يحمل اسم " المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين " ^٥ .

وجوهر الخلاف بين البصريين والبغداديين يكاد أن يبدأ بمسألة التشيع للإمام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، وخلافته ، فلقد كان بشر بن المعتمر وأصحابه البغداديون يتشيعون لعلي كرم الله وجهه ، على حين كان البصريون يفضلون أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، ويذهبون إلى القول بأفضلية أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، بينما يقول البغداديون إن علياً أفضل من أبي بكر الصديق ، وإن أبا بكر أفضل من عمر بن الخطاب ، وإن عمر أفضل من عثمان ^٦ .

^١ المقدسي: البدء والتاريخ. ج ٢ ص ١

^٢ المقدسي: المصدر السابق. نفس الموضع

^٣ القاسمي عبد الحار: فصل الاعتزال. ص ٢٤٦ ، الملطي: التنبيه والرد. ص ٢٨ ، سيدو: تاريخ العرب العام. ترجمة. عادل زعيتر. مطبعة الحلبي. القاهرة ١٩٤٨ م ص ٣٩٢ ، حنا العاجوري: تاريخ الفلسفة العربية. ص ١٥٢

^٤ أحمد بن يحيى المرتضي: طبقات المعتزلة. ص ٢٠ ، ابن تيمية: بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول. بهامش منهاج السنة النبوية. دار الكتب العلمية. بيروت. ج ١ ص ٨٨

^٥ حقق آرثر برام الخلاف في الجواهر ، وقد طُبِعَ في برلين سنة ١٩٠٢ م. هذا وقد حقق الدكتوران رضوان السيد ، ومعنى رواده كتاب أبي رشيد كله ، وهو يتضمن المسائل التي وقع فيها الخلاف بين معتزلة البصرة ومعتزلة بغداد من جوهر وعرض وطبيعات وإنسانيات . وعن هذا الخلاف . انظر: القاسمي عبد الحار: المصيبة والأمل. ص ١٠٢ ، ١٠٤

^٦ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: لسان المبررات. حيدرآباد ١٣٢٠ هـ. ج ٢ ص ٢٢ ، القاسمي عبد الحار: فصل الاعتزال. ص ٥٢ ، ٥٤ ، القاسمي عبد الحار: شرح الأصول =

ثانياً : بعض رجالات المعتزلة في البصرة :

واصل بن عطاء :

هو أبو حنيفة واصل بن عطاء المعتزلي ، المعروف بالغزال . مولى بني ضبة ، وقيل مولى بني مخزوم ، وقيل إن واصل كان مولى لبني هاشم^١ . ولم يكن واصل غزاًلاً ، إنما كان كثير الجلوس في سوق الغزالين إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي^٢ ، فكان يعرف المتعفات من النساء فيصرف صدقته إليهن . وكان ألثغ الرائ ، وبلغ من شدة نكاته أنه لم يكن ينطق حرف الرائ في كلامه أبداً ، حيث أسقط هذا الحرف من كل عباراته حتى لا يُعرف أنه ألثغ ... وفي ذلك جاء قول الشاعر :

يجعل البر قمحاً _____ وخالف الرائ حتى احتال للشعر
ولم يقل مطراً والقول يعجله فعباد بالغيث إشفاقاً من المطر
ولد واصل عام ثمانين للهجرة في المدينة المنورة ، ونشأ بالبصرة وقت أن كان محمد بن الحنفية - أبو عبد الله - يدرس القرآن والحديث والكثير من أمور العقائد والعبادات ، وتوفي واصل عام مائة وواحد وثلاثين للهجرة عن واحد وخمسين عاماً^٣ .

=الخمسة . ص ٧٦٦ ، القاضي عبد الجبار : المعنى في أبواب التوحيد والعدل . ج ٢٠ : الإمامة " . تحقيق د. عبد الحليم محمود ، د. سليمان دنيا ، القاهرة ، ج ١ ص ١١٢ : ١١٤ ، نشوان الحميري : الجور العبي . ص ٢٢٩ ، الملطي : التنبيه والرد . ص ٤١ ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة . ج ١ ص ٧ ، د. أحمد محمود صهي : في علم الكلام . مؤسسة الثقافة الجامعية . الإسكندرية ١٩٧٨ م ج ١ ص ٢٨٢

١ - القاضي عبد الجبار : المسبة والأمل . ص ٢٢ ، القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف . ص ٤٤٢ ، طائش كبرى رادة : معراج السعادة . ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، الإسفرابي : التبصر في الدس . ص ٤٠ ، السهرسباني : الملل والنحل . ج ١ ص ٤٦ ، باقوت الحموي : معجم الأدباء . دار المأمون ، القاهرة . ج ١٩ ص ٢٤٢ ، المعري : الحطط المغربي . ج ٤ ص ١٦٤ . هذا ويرجح الدكتور علي سامي النشار كون واصل مولى لبني هاشم ، مغللاً ذلك بأن واصل كان فيه ومن أحد أفراد البيت الهاشمي صلاب . انظر : د. علي سامي النشار : نشأة الفكر الإسلامي في الإسلام . ج ١ ص ٢٨١

- تيب الحموي : معجم الأدباء . ج ١٩ ص ٢٢٤ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة . ص ٢٣٠

- القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف . ص ٤٤٢ ، د. علي سامي النشار : نشأة الفكر الإسلامي . ج ١ ص ٢٨٢ ، دركي نجيب محمود : المعقول واللامعقول في تراثنا . عندي ر سروي . القاهرة ١٩٨٧ م ط ٢ ص ٨٠ ، القاضي عبد الجبار : المنية والأمل =

وكما تتلمذ واصل على يد محمد بن الحنفية ، فقد تتلمذ - كذلك - على يد الحسن البصري ، وهذا ماجاء في قول طاش " ثم إن واصلًا جالس الحسن البصري بعد الإمام أبي هاشم المنكور ، يأخذ منه الفقه ، ثم ترك مجلس الحسن البصري " ١ ، كما يمكن القول بأن واصلًا قد أخذ بعضاً من مسائله من غيلان النمشقي تلميذ معبد الجهني ٢ .

مما سبق يتبين لنا أن واصلًا " نتاج للإمامين : أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأخيه الحسن بن محمد بن الحنفية ، وأحدهما معتزلي بحت ، والآخر مرجيء بحت ، ثم ثالثهما الحسن البصري ، أخذ عنه الفقه ، ثم في مدرسته عرف مذهب القدر " ٣ .

ص. ٢٣ : ٢٨ ، ١٥٤ : ١٥٤ ، واصل بن عطاء : خطبة واصل النبي جانب فيها الرأى . ضمن نوادر المخطوطات . تحقيق . عبد السلام هارون . المجموعة الأولى . القاهرة ١٩٧٣ م ط ٢ ص ١١٧ : ١٣٦ ، نشوان الحميري : الجور العين . ص ٢١١ ، أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين . ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٤٦ : ٤٩ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١٧٧ ، الإسفرايني : التنصير في الدين . ص ٤١ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . ص ٤٠ ، الخوارزمي : مفاتيح العلوم . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ١٩٨١ م ص ١٨ ، شارل بلات : الحاحط . ص ١٧٥ .

١ طاش كبرى رادة : مفتاح السعادة . ج ٢ ص ١٦٤ ، البلخي : فصل الاعتزال . ص ٦٥ ، نشوان الحميري : الجور العين . ص ٢٠٦ ، باقوت الحموي : معجم الأدباء . ج ١٩ ص ٢٤٦ ، المقريري : الحطط . ج ٤ ص ١٦٤ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٤٦ ، زهدي حار الله : المعتزلة . ص ٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان . تحقيق . د. إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . ج ٢ ص ٨٩ .

٢ القاضي عبد الجبار : المنيه والأمل . ص ٢٠ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٤٧ هامش ١ ، ابن قتيبة : المعارف . ص ٤٨٤ ، طاش كبرى رادة : مفتاح السعادة . ج ٢ ص ١٦٤ ، جمال الدين بن نامة المصري : سرح العيون . ص ٢٠١ .

٣ د. علي سامي البشار : نشأة الفكر الفلسفي . ج ١ ص ٢٨٢ ، ويمكن القول بأن رأس الاعتزال البصري قد كان الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ ، وتلمذ عليه كل من واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ ، وعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٣ هـ ، وعن واصل أحد الاعتزال كل من عثمان الطويل ، وحفص بن سالم ، والحسين بن دكوان ، وقد أخذ عن حفص بن سالم كل من العلاف ، المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، وأبو بكر الأصب ، ومعمّر بن عباد ، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وقد أخذ عن الأصب كل من النظام ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، والشحام ، المتوفى سنة ٢٣٣ هـ ، والعوطي ، المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، ويشر بن المعتمر ، المتوفى سنة ٢٣٦ هـ (على قول الشهرستاني في الملل) أو ٢١٠ هـ (على قول القاضي عبد الجبار في المنه والأمل) ، وهو مؤسس فرع معتزله بغداد ، وقد أخذ عن الشامخ الأسواري ، المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، وقيل ٢٤٠ هـ ، وأحد عن العوطي عباد بن سليمان ، المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، وأحد عن الأسواري أبو علي الحناني ، المتوفى سنة =

وقد عاصر واصل بن عطاء كلاً من أبي حنيفة النعمان، المتوفى سنة ١٥٠هـ ، وأبي يوسف ، المتوفى سنة ١٨٢هـ صاحب كتاب " الخراج " ، ومالك بن أنس ، المتوفى سنة ١٧٩هـ ، ومسلم بن خالد أستاذ الشافعي ^١ .

ولقد كان واصل بن عطاء تقياً متديناً ، وكان واحداً من أجلاء المؤمنين ، ولما زوجّه عمرو بن عبيد أخته ، قال لها : زوجتك برجل ما يصح إلا أن يكون خليفة . حتى أن زوجة واصل - أخت عمرو - سئلت أيهما أفضل : عمرو بن عبيد أم واصل ؟ قالت مادحة لواصل : بينهما ما بين السماء والأرض ، فقيل لها : كيف كان علمه ؟ فقالت : كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يُصلي ، ولوح ودواة موضوعان ، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس يكتبها ، ثم عاد في صلاته ^٢ .

والى قريب من هذا يشير البلخي بقوله " سئل أبو هاشم عبد الله محمد بن الحنفية : كيف كان علم أبيك محمد بن الحنفية ؟ فقال : إذا أردتم أن تعرفوا ذلك ، فانظروا إلى أثره في واصل " ^٣ .

ويقول أبو القاسم البلخي عن واصل : روي عن رجل جليل من أصحابنا ^٤ أن

أنه قال : ما كنا نعد علياً أيام واصل ملكاً ^٥ . وفي مديح واصل بن عطاء لقدرته وتمكنه من لغته ، قال بشار بن برد شعراً جاء فيه :

=٢٩٥هـ ، وعنه أحد ابنه أبو هاشم ، المتوفى سنة ٣٣١هـ ، فهو أبوه وأستاذه ، وعن أبي هاشم أحد أبا الحسن الأشعري ، الذي أصبح بعد ذلك زعيماً للأشعرين .

^١ طائش كبرى رادة : معناه السعادة . ج ٢ ص ١٦٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية . ج ١٠ ص ٢٥٢

^٢ القاضي عبد الحبار : المية والأمل . ص ٢٤ ، الذهبي : ميزان الاعتدال . ج ٢ ص ١٨٣ ، ١٩٨ ، وما بعدها ، ابن قتيبة : المعارف . ص ٤٨٣

^٣ أبو القاسم البلخي : فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة . ص ٦٤

^٤ البلخي : المصدر السابق . ص ٦٦ ، نشوان الحميري : الحور العين . ص ٢٠٨

^٥ هو الشاعر بشار بن برد ، المعروف بـ " المرعت " لأنه حين كان صغيراً كان يضع في أحد يديه قرصاً ، والقرط عند العرب يسمى الرعثة . وبشار بعد أشعر الشعراء على الإطلاق . ر . سنة ٩٥هـ ومات سنة ١٦٧هـ صرباً بالسباط ، وأصله من طхарستان ونشأ في عهده . جاء إلى بغداد ، وبسبب إلى امرأة عفيفة أعنته من الرق ، وكان بشار كثير المدح ' واصل ' ، إلا أن واصلًا طالب بعقله !!! انظر : الجاحظ : البيان والنبين . القاهرة ١٩٣٣هـ ' ص ١٤ ، أبو الفرج الأصفهاني : الأعاني . دار الكتب العربية . القاهرة ١٩٣٩م

أبا حذيفة قد أثبت معجزة
وإن قولاً يروق الخافقين معاً
من خطبة بدت من غير تفسير
لمسكت مخرس عن كل تحبير^١
وقال أيضاً :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا
فقام مرتجلاً تغلي بدهنته
وحبروا خطباً ناهيك من خطب
قبل التصفح والإغراق في الطلب^٢
ولقد كان واصل بن عطاء ذا أيادي بيضاء في نشر لواء الإسلام ، إذ أنه " أرسل
رجاله في الأفاق يدعون إلى دين الله ؛ فأوفد إلى المغرب عبد الله بن الحارث فأجابه
خلق كثير ، وهناك بلد تدعى البيضاء يقال إن فيها مائة ألف يسمون الواصلية ،
وكذلك أوفد إلى اليمن القاسم بن الصعدي وغيره كثير إلى كثير من البلدان: كالجزيرة
والكوفة وخراسان^٣ ، فأوفد إلى الجزيرة أيوب بن الأوتّر ، وإلى الكوفة الحسين بن
نكوان ، وإلى خراسان حفص بن سالم وأمره ببقاء جهن ومناظرته "٤ .

يقول الدكتور النشار : وفي سنة ١٣١ هـ مات الشيخ الكبير عن إحدى وخمسين
سنة فقط عن حياة نقية برة ، وقد أجمع المعتزلة أنه لم يمس المال في حياته ، فهو قد
تورع عن المال تورعاً كاملاً ، ولم يكن - مع قوة عارضته - يدل بنفسه ، بل كان

= ج٢ ص ٢٣٤ ، يافوت الحموي : معجم الأدباء . ج ١٩ ص ٢٤٤ ، وفي فصلة طلب واصل قتل
نشار ، يذكر أن ذلك قد حدث لما قال بنشار بالرجعة ونصوب رأي إبليس في تقديم النار
على الطين ورعته - بنشار - أن جميع المسلمين قد كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله
عليه وسلم . هنا قال واصل : أما لهذا الأعمى الملحد المشف المكني بأبي معاذ من
يقله ؟ أما والله لولا أن القبلة سحبه من سجايا الغالية لعنت إليه من بيعج بطه على
مصحفه ويعيله في جوف منزله وفي يوم جعله . ويعلفاً على كلام واصل هذا جاء القول
" إبه - واصل - لما لم يسطع أن يقول بنشار وإن برد والمرعت ، جعل المشف بدلاً من
المرعب ، والملحد بدلاً من الكافر . وقال لولا أن القبلة سحبه من سجايا الغالية ، ولم
يذكر المصورية ولا المغيرة لمكان الرأ . وقال لعنت إليه من بيعج بطه . ولم يقل
لأرسلت إليه . وقال على مصحفه ، ولم يقل على فراشه " انظر : عبد السلام هارون .
بواذر المخطوطات . مج ١ ص ١٢٥

^١ الجاحظ : البيان والتبيين . ج ١ ص ١٤

^٢ أبو الفرج الأصفهاني : الأعاني . ج ٢ ص ٣٢٤

^٣ السليحي : فصل الاعترال ٦٦ ، ٦٧ ، الأشعري : مقالات الإسلاميين . ج ١ ص ٢٢

^٤ نشوان الحميري : الحور العين . ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، الأشعري : مقالات الإسلاميين . ج ١

أقرب الناس إلى الصمت ، وكان يلزم مجلس الحسن البصري ويظنون به الخرس من طول صمته ، فلا يتكلم إلا حين تدعو الحاجة إلى الكلام .. فيهدر هديراً^١ .
؟؟؟؟؟؟

عمرو بن عبيد :

هو عمرو بن عبيد بن ثاب^٢ ، وعنه يقول الدكتور النشار : أول مفكر معتزلي احتل مكانة ممتازة في تاريخ المدرسة المعتزلية البصرية ، وهو عمرو بن عبيد بن باب ، ولد عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٤٤هـ ، بل إن المعتزلة تنسب إليه قدر انتسابها إلى واصل بن عطاء ، فهو - في الحقيقة - قرين لواصل أكثر منه تلميذ له^٣ .
وأكثر المراجع تذهب إلى أنه عمرو بن عبيد بن باب^٤ ، وهو من طبقة المعتزلة الرابعة .. "عمرو بن عبيد بن باب ، وباب من سبي بابل ومن ثغور بلخ ، وهو مولى لآل عرادة من يربوع بن مالك ، وكنيته عمرو أبو عثمان"^٥ . وكان أبوه عاملاً للشرطة في خدمة الحاجج الثقفي^٦ ، لكن عمراً كان تقياً ورعاً يعرف لله تعالى قدره وللدن حرمة وقديسه ، على غير ما كان عليه أبوه عبيد ، ولهذا قال صاحب "الوفيات" : كان الناس إذا رأوا عمراً مع أبيه قالوا : هذا خير الناس ابن شر الناس ! فيقول أبوه : صدقتم ، هذا إبراهيم وأنا أزر . وسئل الحسن عنه فقال : لقد سألت عن

^١ د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج. ١ ص ٣٩٩

^٢ القاضي عبد الحبار : المسبة والأمل ص. ٢٨ ، نشوان الحميري : الحور العين ص. ١١١

د. سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية ص. ٢٥١

^٣ د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج. ١ ص ٣٩٩

^٤ د. النشار : المرجع السابق ، نفس الموضوع ، القاضي عبد الحبار : المحيط بالتكليف

ص. ٢٤٠ ، ابن حلكان : وفيات الأعيان ج. ٢ ص ٤٦٠ ، الإسعري : التنصير في الدن

ص. ٤٢ ، البخاري : فصل الاعتزال ص. ٦٨ ، طاش كبرى زادة : معناه السعادة ج. ٢

ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج. ١٢ ص ١٦٦ ، ابن قتيبة : المعارف ص. ٤٨٢

^٥ القاضي عبد الحبار : المسبة والأمل ص. ٢٨ ، ابن قتيبة : المعارف ص. ٤٨٢ ، نشوان

الحميري : الحور العين ص. ١١٢ ، البغدادي : تاريخ بغداد ج. ١٢ ص ١٦٦ ، ابن حلكان : وفيات

الأعيان ج. ٢ ص ٤٦٠ ، د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج. ١ ص ٣٩٩ ، د. سعيد مراد

مدرسة البصرة ص. ٢٥١

^٦ هو الحاجج بن يوسف بن الحكم بن أبي عفيف بن مسعود الثقفي ، يُكنى أبا

محمد ، كان أحسن دقيق الصوت ، ضرب الكعبة بالمنجنيق عام ٧٢هـ ، وهو قاتل عبد الله

بن الربيع حين خرج على عبد الملك بن مروان الأموي ، وذلك في سنة ٧٢هـ . انظر :

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص. ١٣٤

رجل كان الأنبياء ربه وكان الملائكة أدبته ، إذا قام بأمر قعد به ، وإذا قعد بأمر قام به ، وإذا أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإذا نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن ولا باطناً أشبه بظاهر .. منه ^١ .

ويقول أبو القاسم البلخي : هو من جملة أصحاب الحسن البصري ، وكان الحسن إذا ذكره قال هو خير فتيان البصرة . وله فضائل كثيرة ليس يجمعها إلا كتاب مفرد . حج أربعين سنة ماشياً وبغيره يُقاد معه يركبه الفقير والضعيف والمنقطع به ، وكان يحيي الليل كله في ركعة واحدة ، فعل ذلك غير مرة في المسجد الحرام ^٢ .

وكان المنصور الخليفة العباسي - ثاني الخلفاء العباسيين - يبالغ في تعظيم ابن عبيد ، حتى قيل له : إن عمراً خارج عليك ، فقال : هو يرى أن يخرج علي إذا وجد ثلاثمائة وبنسعة عشر مثله ، وذلك لا يكون ^٣ .

وأما مات عمرو - سنة ١٤٤هـ - وقف هذا الخليفة العباسي يُصلي عليه وقل : بقي على الأرض أحد يُستحي منه .. ثم أنشد :

ألى عاينك الله عز متوسد	قبراً مررت به على مران ^٤
قبراً تضمّن مؤمناً منحناً	حفظ الإله ودان بالقسرآن
فلو أن هذا الدهر لبقى واحداً	أبقى لنا عمراً أبا عثمان ^٥

١- يوافقه عمرو واصلاً في آرائه أول الأمر ، حتى إنه " لا أول ، بعض محبي واصل - وكان لا يتكلم - يقولون : هذا الذي تعدونه في الخرس ليس أحد أعلم بكلام النبوة - به ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين

^١ بشوان الحميري : الحور العيس ، ص ١١١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٦٠
^٢ البلخي فصل الاعتزال ، ص ٦٨ ، طائش كبرى رادة : مفتاح السعادة ، ج ٢ ، ص ١٦٥
 ، بشوان الحميري : الحور العيس ، ص ١١١
^٣ انفاص عبد الجبار : المصيبة والأمل ، ص ٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٢٤
^٤ مران . مفتاح المصم وتنشيد الرء ، موضع بين مكة والبصرة . انظر : باقوت الحموي : معجم الأديان ، ج ٥ ، ص ٩٥ ، البلخي : فصل الاعتزال ، ص ٦٨
^٥ القاسمي : عبد الجبار : المصيبة والأمل ، ص ٤١ ، ابن قيسه : المعارف ، ص ٤٨٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٦٢ ، بشوان الحميري : الحور العيس ، ص ١١٢ ، البت : فصل الاعتزال ، ص ٦٨ ، د. البشار : نشأة الفكر الفلسفي ، ج ١ ، ص ٤٠٢

والرد عليهم منه . قال عمرو : أتى هذا ؟ وله عنق لا يأتي معها بخير - وكان واصل طويل العنق - ثم قال عمرو بعد ذلك : أشهد أن الفراسة باطلة ، إلا أن ينظر رجل بنور الله ^١ .

وكان الحسن البصري في هذا الخلاف يقف إلى جانب واصل لا عمرو ، فكان الحسن البصري حين مات " مات وهو عن واصل راضٍ ، لكنه كان متخوفاً من عمرو بن عبيد " ^٢ ، لأن عمراً كان مغرقاً في التأويلات العقلية والتجريدات الذهنية ، مما أداه إلى رفض الكثير من الأحاديث ، ما لم توافق ما اجتهد به عقله ^٣ .
??????

أبو الهذيل العلاف :

هو محمد بن الهذيل العبدي ، كان نسيج وحده ، وعالم دهره ، ولم يتقمه أحد من الموافقين له ولا المخالفين ، كان يلقب بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت في العلافين ، وهذا كما يقال أبو سلمة الحذاء وأبو سعيد المقبري ^٤ .
وعن ذلك يقول الدكتور النشار : هو أول فلاسفة المعتزلة بلا مدافع ، بل الممثل الأول للفلسفة الإسلامية . اسمه الكامل هو أبو الهذيل محمد بن أبي الهذيل العلاف ، أو أبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي ، كان مولى لعبد القيس ، ولُقّب بالعلاف - فيما يقول ابن المرتضي - لأن داره بالبصرة كانت في العلافين ، وهذا خطأ ، فقد لُقّب المعتزلة بأسماء الصنائع التي كانوا يقومون بها ، وذلك دليل على أصلهم غير العربي ، هذا وقد ولد العلاف سنة ١٣١ هـ ، على ما يذكر الخياط ، أو سنة ١٣٤ هـ على ما يذكر أبو القاسم البلخي ، وتوفي سنة ٢٣٥ هـ ^٥ .

^١ القاضي عبد الحبار : المنية والأمل . ص ٢٤

^٢ د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي . ج ١ ص ٤٠٢

^٣ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . ج ١٢ ص ١٧٠ ، د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي

ج ١ ص ٤٠٢

^٤ القاضي عبد الحبار : المنية والأمل . ص ٤٣ ، ٤٤ ، الإسفرايني : التبصير في الدين

ص ٤٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ٤ ص ١٦٥

^٥ د. النشار : نشأة الفكر الفلسفي . ج ١ ص ٤٤٢ ، ٤٤٤

وعن أبي الهذيل العلاف يقول البلخي : إنه كان من أهل البصرة وكان مولى لعبد القيس^١ .

وهناك اختلاف بين مؤرخي الفرق حول تاريخ مولد أبي الهذيل العلاف : فمن قائل إنه ولد سنة ١٣٥ هـ ، ومن قائل إنه ولد سنة ١٣٤ هـ ، ومن قائل إنه ولد سنة ١٣١ هـ ، وذلك بالبصرة حيث نشأ وتلمذ على يد عثمان الطويل^٢ ، فيقول القاضي عبد الجبار : ولد أبو الهذيل سنة أربع وثلاثين ومائة وكان مولى لعبد القيس^٣ . ويقول الشهرستاني : أبو الهذيل العلاف (١٣٥ هـ : ٢٢٦ هـ) هو حمدان بن أبي الهذيل العلاف ، شيخ المعتزلة ومقدم الطائفة ومقرر الطريقة والناظر عليها . أخذ الاعتزال عن عثمان الطويل^٤ ، وهو مولى عبد القيس وشيخ المعتزلة البصريين^٥ . ويرى القاضي عبد الجبار أن العلاف " نسيج وحده وعالم دهره " ، ويرى الملطي أن العلاف " غير مُدرك في الجدل ولا مثيل له " .

- ^١ الملحي : فصل الاعتزال . ص ٦٩ ، البعدادي : الفرق بين الفرق . ص ١٠٢
^٢ بورد الدكتور سعيد مراد صور الخلاف في هذه المسألة بشيء من التفصيل . انظر : د. سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية . ص ٣٧٢ ، ٣٧٣
^٣ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٤٦ ، ٤٧
^٤ عثمان الطويل هو أحد رجال مدرسة الحسن البصري ، ثم امتنع عنها ، وهو أستاذ أبي الهذيل العلاف ، وكان قد أخذ الاعتزال عن واصل بن عطاء ، وقد أرسله واصل إلى أرمينية لنشر الإسلام هناك فوافقه خلق كثير .
^٥ الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٤٩ ، القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٤٢ ، ابن النديم : الفهرست . تحقيق . رضا . تحدد . طهران ١٩٧١ م ص ٥٦
^٦ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٤٣ ، ٤٤
^٧ الملطي : التنبيه والرد . ص ٤٢ : ٤٥ ، وينسب بعض الدراسات إلى العلاف التديب خاصة في كلامه عن العلم الإلهي ، إذ " أن قوله الله تعالى عالم بعلم ، بعد إنساناً لصفة العلم كصفة ، وهذا يمكن أن يستخلص منه أن علم الله ليس كلياً ومطلقاً ومجرداً فقط ، بل تتناول الجزئيات ، مما يترتب عليه اتصال بمسألة الاختيار والخير ، من حيث إن القول بشمول العلم الإلهي للجزئيات يفتر من القول بخيرية أفعال الإنسان ، بمعنى أنها تصبح كغيرها من الحوادث والأشياء ، مخلوقة أرلأ بعلم الله ، لأن تساوي الذات والصفة في مضمون "الوحدة" معناه تساويهما في القدم والأرلية ، فكل شيء وكل فعل - إذا - معلوم لله منذ الأزل ، أي مقدور حدوثه منذ الأزل ، وحس يحدث إنما يحدث بهذه الحتمية الخيرية ، ولا يبقى لإرادة الإنسان في أفعاله مجال للاختيار والحرية ، أما القول بكون علم الله كلياً ومطلقاً ومجرداً ، فيؤدي إلى القول بأن الجزئيات خارجة عن نطاق العلم الإلهي بخصوصها ، وإن كانت داخله في نطاق العلم الكلي المطلق دون تعيين ، وهذا يمكن أن يقترب - بمضمونه - من مذهب الفيدرية الذي يضع في حسابه حرية الاختيار في فعل الإنسان . هذه الاستنتاجات - إذا صحت - يمكن أن تقدم لنا شكلاً من أسكن الحرية =

كان أبو الهذيل العلاف على دراية تامة باللغة العربية ، وكان متوقفاً لها تنوق المدرِك المتمكن ، تنوق رسالة لا تنوق وظيفة ، كما أنه كان عارفاً بأحكام القرآن الكريم وحقائقه الكبرى ، كثير الذود عن النين ضد المذاهب الغنوصية واليونانية ، والتي كانت تعمل - بطريقة أو بأخرى - على تفويض الإسلام ، مما دفعه إلى الاطلاع على تراث هذه المذاهب اطلاعاً ممتازاً ، ليتمكن من الرد عليهم ، ولذلك كانت " مناظراته مع المجوس والثوية وغيرهم طويلة ممتدة ، وكان يقطع الخصم بأقل كلام ، وقد أسلم على يديه زيادة على ثلاثمائة ألف رجل .ومن محاسنه أنه أتاه رجل فقال : أشكل علي أشياء من القرآن ، فقصدت هذا البلد ، فلم أجد ممن سألته شفاء لما أرومه ، فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل :إن بغيتك عند هذا الرجل . فاتق الله وأفني . فقال العلاف :فماذا أشكل عليك ؟ قال :آيات من القرآن توهمني أنها متناقضة ، وآيات توهمني أنها ملحونة . قال :فماذا أحب إليك : أن أجيبك بالجملة ، أو تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة . فقال أبو الهذيل : هل تعلم أن محمداً كان من أواسط العرب وغير مطعون عليه في لغته ، وأنه كان عند قومه من أعقل العرب ، فلم يكن مطعوناً عليه ؟ فقال : اللهم نعم . قال : فهل اجتهدوا في تكتيبيه ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة أو باللحن ؟ قال : لا . قال أبو الهذيل : فتدع قولهم مع علمهم باللغة ، وتأخذ بقول رجل من الأوساط ؟ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ^١ .

ومن مناظراته للثوية ، مناظرته لصالح بن عبد القدوس الزنديق الثوي ^٢ ، حيث قال له أبو الهذيل : على أي شيء تعزم يا صالح ؟ قال : استخير الله وأقول بالاثنتين . فقال أبو الهذيل قاطعاً إياه : فأيهما استخرت .. لا أم لك ^٣ ؟

= عند العلاف ، وهو يتناقض مع رأيه القدري المعروف ، أي قوله بحرية الاختيار "انظر : حسين مروة : البرعات المادية . ج ١ ص ٦٦١ ، ٦٦٢ .
^١ القاصي عبد الحبار : المنبة والأمل . ص ٤٤ ، ٤٥ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي . ج ١ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

^٢ هو صالح بن عبد القدوس الأردى الحدامي ، كان شاعراً ومتكلماً وواعظاً . انظر : خير الدين الزركلي : الأعلام . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨٠ م ج ٢ ص ١٩٣ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي . ج ١ ص ٤٤٨ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . ص ١٨٤ .

وكان أبو الهذيل العلاف - إلى جانب ورعه وتقواه - أدبياً زاهداً متقشفاً ، ينفق ما يأتيه من الخليفة - ستون ألف درهم للسنة - على أصحابه وفقراء المسلمين^٢ .

??????

إبراهيم بن سيار النظام :

هو ابن أخت أبي الهذيل ، من الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة - طبقة العلاف نفسه - وقد أخذ الاعتزال عن أبي الهذيل . ويعد النظام واحداً من كبار المعتزلة ، تاريخ مولده غير متفق عليه ، وتوفي في سنة ٢٣١ هـ^٣ . وهو إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري - أبو إسحق - من أئمة المعتزلة شديد العلم بالفلسفة ، وله فرقة تُسمى النظامية ، وتتلذذ على يديه الكعبي ، وكان - النظام - مولى من الموالي^٤ .

ويروي القاضي أن أبا عبيدة قال : ما ينبغي أن يكون في الدنيا مثل النظام ، فالأولون كانوا يرون أنه في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، والنظام هو رجل هذا الألف^٥ .

وعن النظام يقول الدكتور النشار : النظام أكبر شخصية فلسفية معتزلية في العالم الإسلامي ، صدر عن فكر مبدع ونظام فلسفي دقيق ، شغلت شخصيته القرن الثالث والرابع ، وقد اعتبره ابن حزم وابن نباتة أعظم رجال المعتزلة ، واعتبره طاش

^١ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٤٦ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٤٤٨

^٢ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٤٦ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٤٤٩

^٣ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٤٧ ، د.سعيد مراد : مدرسة البصرة ، ص ٣٩٤ : ٣٩٧

^٤ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٤٧ ، القاضي عبد الجبار : المحظ بالتكليف ص ٤٤٣ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٤٤٩ ، الإسعرايبي : التصريف في الدين ص ٤٢ ، الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٥٢ ، نشوان الحميري : الحور العبي ص ١٥٢ ، ٢٠٩ ، د.أبو ريدة : النظام ص ١

^٥ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي ج ١ ص ٤٨٤

كبرى. زادة شيخاً من كبار المعتزلة وأئمتهم ، مقدماً في العلوم شديد الغوص على المعاني^١ .

وقد لُقّب بـ "النظام " لأنه كان - فيما يخبرنا بعض المؤرخين - ينظم الشعر الموزون والكلام المنثور ، لكن الشهرستاني يرى أن المعتزلة "يموهون على الأعمار بدينه ، ويوهمون أنه كان نظاماً للكلام المنثور والشعر الموزون ، وإنما كان ينظم الخرز في سوق البصرة ، ولأجل ذلك قيل له : النظام^٢ .

كان النظام واسع الاطلاع ، إذ أنه كان وسط الحركة العقلية الفلسفية التي بلغت أوجها في عصر المعتصم : الخليفة العباسي^٣ ، فعلاوة على اتصاله - النظام - بأبي الهذيل العلاف - خاله - فقد اتصل بالخليل بن أحمد^٤ النحوي الشاعر ، إضافة إلى اتصاله بالتيارات الفكرية والفلسفية والعقائدية التي كانت في زمانه . هذا .. وقد تتلمذ على يديه الكثيرون من رجال المعتزلة منهم : أبو عمرو الجاحظ وأبو علي الجبائي وابنه أبو هاشم الجبائي^٥ .

كان النظام من أشد المدافعين عن الإسلام في منظومته العقائدية والتشريعية ، ولذلك لما حانت ساعته قال : اللهم إن كنت تعلم أنني لم أقصر في نصرة دينك ، اللهم ولم اعتقد مذهباً إلا سنده التوحيد ، اللهم إن كنت تعلم مني ذلك فاغفر لي نوبتي وسهل علي سكرة الموت . فمات في ساعته^٦ .

^١ د.النشار: نشأة الفكر الفلسفي . ج. ١ ص ٤٨٤

^٢ الشهرستاني : الملل والنحل . ج. ١ ص ٥٢ هامش ٢ ، الإسفرائيني : التبصير في الدين . ص ٤٢ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١١٢ ، د.أبو ريدة : النظام . ص ٧ ، د.سعيد مراد : مدرسة البصرة . ص ٢٩٢

^٣ ابن كثير : البداية والنهاية . ج. ١٠ ص ١٦١ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . ص ٢٨٠ ، د.النشار : نشأة الفكر الفلسفي . ج. ١ ص ٤٨٥

^٤ هو الخليل بن أحمد ، صاحب كتاب "العين" وهو أستاذ سيبويه . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية . ج. ١٠ ص ١٦١ ، ابن قتيبة : المعارف . ص ١٠٨ ، ٥٤١ ، نشوان الحميري : الجور العين . ص ٥١ ، د.زكي نجيب محمود : المعقول واللامعقول . ص ٨٦

^٥ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ١٠٧ ، دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام . ترجمة د.محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ١٩٢٨ م ص ١٦ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١١٤ ، د.عبد الرحمن بدوي : مذاهب الإسلاميين ، بيروت ١٩٧١ م ج ١ ص ٢٠٢

^٦ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٤٩ ، د.سعيد مراد : مدرسة البصرة الاعتزالية . ص ٤١١

لقد أثرى النظام الجو الفكري في عصره ، نظراً لأنه - النظام - كان واسع الاطلاع على الثقافات التي عاصرتة - وما قبلها - بعد أن حفظ القرآن الكريم والإنجيل والمزامير ، إضافة إلى حفظه للأشعار والروايات وطرق الاختلاف . لكن أخطر ما قدمه النظام هو قوله بـ " الطفرة " حيث يرى أن الخلق " حصل مرة واحدة ولم يتعدد ، معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً ، ولم يتقدم خلق آدم عليه السلام خلق أولاده ، غير أن الله تعالى أكمّن بعضها في بعض . فالتقدم والتأخر إنما يقع في ظهورها من مكانها دون حدوثها ووجودها " ^١ ، وهذا القول من النظام دفع البعض إلى القول بأنه - النظام - قد استقى فكرته تلك من الفلاسفة الذين قرأ لهم مؤلفاتهم في الكم والكيف والوضع والأين والمتى ... وكلها - كما نعلم - مقولات أرسطية ، مما يجعل هناك مجالا مقبولا للقول بأن " نظرية " النظام في الكون مستقاة - بشكل أو بآخر - من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة ، خاصة أنكساجوراس ، الذي كان يتبنى القول بخلق الموجودات دفعة واحدة ^٢ .

???????

٥- الجبائيان : أبو علي وأبو هاشم :

نعرف أن أبا رشيد النيسابوري - موضوع هذه الدراسة - كان تلميذاً لقاضي القضاة عبد الجبار ، هو وزميله ابن متوية ، وقد كان القاضي عبد الجبار تلميذاً لأبي هاشم - الجبائي الصغير - الذي كان قد أخذ العلم على يد أبيه وأستاذه أبي علي - الجبائي الكبير - والجبائي الكبير هذا كان تلميذاً للشحام ^٣ ، وهو تلميذ أبي الهذيل العلاف .

^١ الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٥٦

^٢ حسين مروة : النزعات المادية . ج ١ ص ٦٦٥ : ٦٦٨

^٣ هو أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن إسحق الشحام ، من أصحاب أبي الهذيل ، وأبيه تنسب فرقة الشحامية ، وقد انتهت إليه رئاسة المعتزلة في البصرة في زمانه ، وكتب كتباً كثيرة . في الرد على مخالفيه ، كما كتب تفسيراً للقرآن الكريم . كان الشحام ماهراً جدلاً ، مات سنة ٣٦٧ هـ . انظر : القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٦٠ ، العاصي عبد الجبار : المحيط بالتكليف . ص ٤٣٦ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٥٤ هامش ١ ، الإسفرايني : التبصر في الدين . ص ٥١

وتكمن أهمية الشحام أنه قد عاصر فترة انحسار المد الاعتزالي على يد المتوكل^١، الذي وقف ضد الفكر الاعتزالي بوجه عام وشد من أزر المحتشئين^٢. كما تكمن أهمية الجبائي في أنه يمثل نقطتين من أهم النقاط في تاريخ الفكر الاعتزالي عامة :

الأولى : أنه حاول رأب الصدع الذي أصاب الفكر الاعتزالي على يد أهل السنة والرافضة من الشيعة ، والسلطة السياسية الحاكمة ممثلة في المتوكل وابنه الأكبر المنتصر^٣.

الثانية : أنه يمثل - مع مدرسة القاضي عبد الجبار - الخطوط الأخيرة المكتوبة باليد الاعتزالية ، ذلك لأنه بعد هذا العهد سوف ينسحب الاعتزال لينطوي تحت ثياب التشيع الزيدي^٤.

أما الجبائي الكبير ، فهو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، إمام في علم الكلام منذ صغره ، فقد تعلم هذا العلم على أبي يوسف الشحام ، الذي رأس معتزلة البصرة ، وكان أستاذاً لأبي الحسن الأشعري . ولد سنة خمس وثلاثون ومائتان ، وتوفي سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة^٥.

^١ ابن كثير: البداية والنهاية ج. ١٠ ص ٣١٠: ٣١٤

^٢ المقدسي: البدء والتاريخ ج. ٦ ص ١٢١، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية

ص ٢١٢: ٢١٤، رهدي حار الله: المعتزلة ص. ١٨٠، ٢١٤

^٣ قتل المنتصر أباه المتوكل لتقديم الأب للابن الأصغر محمد المعتز .. عليه ، وذلك بتحريض من تركي اسمه وصف ، وتم ذلك ليلاً في قصر الجعفري بسامراء في أحران سنة ٢٤٧هـ ... وأنشد أحدهم قائلاً:

خليفة مات لم يأسف له أحد ... وقام آخر لم يفرح به أحد

فمر ذاك ومر الشؤم يتبعه ... وقام هذا فقام النحس والنكد

انظر: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص. ٢١٢، ٢١٤، المطهر المقدسي: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ج. ٦ ص ١٢٢، ١٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية .

مكنه المعارف، بيروت ١٩٨٧م ج. ١٠ ص ٣١٠: ٣٤٩

^٤ د. أحمد محمود صبحي: الزيدية ص. ٢٠٥، ٢٢١، ٢٢٧

^٥ القاضي عبد الجبار: المصنف والأمل ص. ٦٧، ابن عبد البر القرطبي: القصد والأمم في معرفة أصول أسساب العرب والعجم، القاهرة ١٣٢٥هـ ص ٩٧، ابن خلكان: وفيات

أعيان ج. ٤ ص ٢٦٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج. ١١ ص ١١٢، ١١٣

وإن كان الجبائي الكبير قد ولد في مدينة "جبتي" فقد عاش وتعلم في البصرة ،
التي كانت - ما تزال - تتسع لجبل المتكلمين وحواراتهم ، على الرغم من النكبة
التي حلت بالمعتزلة على يد أواخر خلفاء بني العباس .
كان أبو علي من أحسن الناس وجهاً وتواضعاً ، وأكثرهم موعظة واعتباراً ،
كان إذا ذكر الموت تتحدر دموعه من عينيه ويأخذ في العظة .

وكان الجبائي الكبير محباً لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فإذا روى حديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعلي بن أبي طالب " أنا حرب لمن حاربكم ، سلم
لمن سالمكم " يقول : العجب من هؤلاء النوابير يروون هذا الحديث ثم يتولون معاوية
ويقولون به^١ .

كان الجبائي الكبير ذا عقلية نقدية فذة ، لا تأخذ الأمور على عواهنها ، فكان
يقول : ليس بيني وبين أبي الهذيل العلاف من خلاف إلا في أربعين مسألة !!! مع
علمنا أن الجبائي ما كان يجلّ كحداً - بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة
رضي الله عنهم - إجلاله لأبي الهذيل العلاف^٢ .

وعنه يقول ابن كثير : أبو علي الجبائي شيخ المعتزلة ، اسمه محمد بن عبد
الوهاب أبو علي الجبائي ، شيخ طائفة المعتزلة في زمانه ، وعنه استقبل أبو الحسن
الأشعري ثم رجع عنه . وللجبائي تفسير حافل مطول ، وله اختيارات غريبة في
التفسير ، وقد رد عليه الأشعري وقال : كأن القرآن نزل في لغة أهل جباء^٣ .

وقد ألف الجبائي الكبير في علم الكلام وفي علوم القرآن الكريم وفي الحديث
وفي الفلسفة وفي علم النجوم^٤ !!.

^١ - الفاضل عبد الجبار : المصيبة والأمل ، ص ٧٠ ، الفاضل عبد الجبار : المحيط بالتكليف
ص ٤٢٥ ، الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ص ٧٨ ، ٧٩ ، طاش كبرى راده : مفتاح
السعادة ، ج ٢ ص ١٦٤ ، ١٦٥

^٢ - الفاضل عبد الجبار : المصيبة والأمل ، ص ٧١ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة ، ص ٤٣٠

^٣ - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ص ١٢٥

^٤ - الفاضل عبد الجبار : المصيبة والأمل ، ص ٨١ ، ٩٥ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة
ص ٤٢٥ ، ٤٤٠

وأما الجبائي الصغير: فهو أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي، مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وإليه تنسب فرقة البهشمية التي كان هو رئيسها^١ .
وعنه يقول ابن كثير : ابن عبد الوهاب بن خالد بن حمران بن أبان ، مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهو أبو هاشم بن أبي علي الجبائي المتكلم المعتزلي ابن المعتزلي !، إليه تنسب الطائفة البهشمية من المعتزلة ، وله تصنيفات في الاعتزال ، كما لأبيه من قبله . مولده سنة سبع وأربعين ومائتين ، وتوفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . قال ابن خلكان : كان له ابن يقال له أبو علي ، دخل يوماً على صاحب بن عباد فأكرمه واحترمه وسأله عن شيء من المسائل ، فقال : لا أعرف نصف العلم . فقال : صدقت ، وسبقك أبوك إلى الجهل بالنصف الآخر^٢ !!
هذا ما يقوله ابن كثير نقلاً عن ابن خلكان ، أما القاضي عبد الجبار فيقول : أبو هاشم بن سلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي رحمه الله ، قمناء وإن تأخر في السن عن غيره ممن نذكر في هذه الطبقة - التاسعة - لتقدمه في العلم ، ولم يبلغ غيره مبلغه في علم الكلام ، وكان من حرصه يسأل أبا علي حتى يتأذى منه^٣ .
وقد كتب أبو هاشم العديد من الكتب في شتى المجالات : فكتب في أصول المذهب الاعتزالي ، وكتب ربوداً على مسائل وردت إليه فأجاب عنها ، وكتب نقوضاً على كتب المخالفين ، وكتب تفسيراً للقرآن الكريم ، وكتب في المعجزات^٤ .

??????

ثالثاً : بعض رجال المعتزلة في بغداد :

- ^١ ابن كثير: البداية والنهاية . ج ١١٣ ، ١١٤ ، القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ١٧٧ ، القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف . ص ٤٣٦ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١ ص ٧٨ ، الإسفرايني : التبصير في الدين . ص ٥٢ ، الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين . ص ١٨٤
- ^٢ ابن كثير: البداية والنهاية . ج ١١ ص ١٧٦ ، علي فهمي خشيم : الجبائيان . ص ٣٠٦
- ^٣ ٣٠٨ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة . ص ٤٤١ ، ٤٤٢
- ^٤ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٤٤٢ : ٤٤٦
- ^٥ علي فهمي خشيم : الجبائيان . ص ٢٢٢ : ٢٢٥ ، د. سعيد مراد : مدرسة البصرة . ص ٢٥١ : ٢٥٢

بشر بن المعتمر :

من الممكن تصور مدرسة المعتزلة في بغداد على النحو الآتي :

أخذ عن بشر بن المعتمر^١ ، المتوفى سنة ٢١٠ هـ (كما جاء في المنية والأمل)
أو ٢٢٦ هـ (كما جاء في الملل والنحل) كل من أبي موسى المردار ، المتوفى سنة
٢٢٦ هـ ، وأحمد بن أبي دؤاد ، المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وثمامة بن الأشرس ، المتوفى
سنة ٢١٣ هـ . وعن أبي دؤاد أخذ الجعفران : جعفر بن حرب ، المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ،
وجعفر بن مبشر ، المتوفى سنة ٢٣٤ هـ . وعن ابن حرب أخذ الاعتزال الإسكافي ،
المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وعيسى بن الهيثم الصوفي . وعن ابن المبشر أخذ الاعتزال
الخياط ، المتوفى سنة ٢٩٠ هـ ، وهو - بدوره - تتلمذ على يديه أبو القاسم البلخي ،
المتوفى سنة ٣١٩ هـ^٢ .

والباحث في غنى عن القول بأن الاعتزال ظل بصرياً - بحكم بعض العوامل
السياسية لا الفكرية - لأنه لما توافقت العوامل السياسية مع التوجهات الاعتزالية ،
خرج الاعتزال إلى بغداد ، عاصمة خلافة بني العباس وحاضرة العالم الإسلامي
وقتها ، خاصة في عهد المأمون الذي أفرد لهم بلاطه وأفسح لهم في مجالسه .

وبشر هذا هو مؤسس مدرسة المعتزلة في بغداد : هو أبو سهل بشر بن المعتمر
الهلالي ، كان زاهداً عابداً ، من الطبقة السادسة الاعتزالية - طبقة العلاف والنظام -
وهو - على أغلب الظن - كوفي انتقل إلى بغداد فأسس فيها مدرسته الاعتزالية
البغدادية التي اتسمت بطابع العملية أكثر من الاتصاف بطابع النظرية الذي اتصفت
به مدرسة الاعتزال في البصرة . ويمكن إرجاع ذلك إلى تأثير معتزلة بغداد بحركة
الترجمة التي كانت على أشدها في عاصمة الخلافة العباسية ، خاصة حين نعلم أن

^١ بشر هذا أخذ الاعتزال على يد معمر بن عباد السلمي .

^٢ القاضي عبد الجبار . المنية والأمل . ص ١٠٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية . ج ١٠

حركة الترجمة بلغت أوج ازدهارها في زمن الرشيد. الخليفة العباسي ، وهونلك الخليفة الذي عاصره بشر بن المعتمر^١ .

وقد رأس بشر فرقة البشرية المعتزلية ، وهو صاحب القول بالتولد ونفي الأصلح ومسائل أخرى لم يقل بها أحد من المعتزلة قبله ، وله قصيدة قيل إنها من أربعين ألف بيت !، يرد فيها على مخالفني مذهبه كلهم ، فيقول في أحد أبياتها مدافعاً عن نفسه ضد تهمة أنه رافضي :

لسنا من الراقضة الغـلالة ولا من المرجئة الجفــــــــــــــــة
لا مفرطين ، بل نرى الصديقــــــــــــــــاً مقدماً ، والمرضى الفاروقــــــــــــــــاً^٢

??????

أبو موسى المردار :

هو عيسى بن صبيح ، أسناده بشر بن المعتمر ، بلغ من الزهد مرتبة رفيعة ، حتى لقب بـ " راهب المعتزلة " وذلك لشدة زهده وتشفهه . توفي المردار حوالي سنة ٢٢٦ هـ . أخذ عنه العلم الجعفران وأبو زفر ومحمد بن سويد . وكان المردار مصاحباً للإسكافي وابن الهيثم ، وكان - المردار - أميل إلى العقل أداة للمعرفة ، إذ العقل عنده موجب لمعرفة الله تعالى بجميع أحكامه وصفاته ، وتلك المعرفة سابقة لورود الشرائع ، ومن ثم نعلم أنه إن قصر - أي الإنسان العاقل المكلف - ولم يعرف ولم يشكر ، عاقبه الله تعالى عقوبة دائمة . ومن هنا أثبت المردار التخليد واجباً عقلياً^٣ .

^١ القاضي عبد الجبار :المنية والأمل .ص٤٩ ، ٥٠ ، ١٦٦ ، القاضي عبد الجبار

^٢ القاضي عبد الجبار :المصدر السابق .ص٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ١٦٦ ، القاضي عبد الجبار :المحيط بالنكليف .ص٤٣ ، الشهرستاني :الملل والنحل .ج١ ص٤٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، الرازي :اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .ص٤٢ ، الملطي :التنبيه والرد .ص٣٨ ، البغدادي :الفرق بين الفرق .ص١٥٦ ، الإسفرايني :التبصير في الدين .ص٤٥ ، الخوارزمي :مفاتيح العلوم .ص١٩

^٣ القاضي عبد الجبار .المنية والأمل .ص١٧٠ ، ١٧١ ، الشهرستاني :الملل والنحل

ج١ ص٦٩ ، ٧٠ ، الإسفرايني :التبصير في الدين .ص٤٧ ، الرازي :اعتقادات فرق مسلمين والمشركين .ص٤٢ ، البغدادي :الفرق بين الفرق .ص١٦٤

ولما مات وقف على قبره أبو الهذيل العلاف وقال وهو يبكي : هكذا شهدنا أصحاب
واصل وعمر .

??????

الجعفران :

هما : جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر . أما جعفر بن حرب فقد توفي سنة
٢٣٤ هـ ، وأما جعفر بن مبشر الهمداني فقد توفي سنة ٢٣٦ هـ ، وكلاهما من تلاميذ
أبي موسى المردار ، خاصة ابن حرب الذي اعتنق كثيراً من آراء المردار وزاد
عليها ، وقد كان الجعفران عالمين ، حتى قيل في ذلك : أعلم من الجعفرين . وكانا
زاهنين ، حتى قيل في ذلك : أزهد من الجعفرين^١ . وقد ألف ابن حرب كتاباً في أصول
المذهب رفضه البغدادي ، ونقضه بكتاب أسماه "الحرب على ابن حرب" !! والجعفران
من الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة ، وهما معاصران للخليفة الواثق ، وله - الواثق
- مواقف مع ابن حرب تدل على مدى تقدير الواثق لعلمه ومكانته^٢ .

??????

الإسكافي :

هو أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافي . كتب الكثير في علم الكلام ، وكان
زاهداً عالماً فاضلاً يسعى على معاشه بالخيطة حتى منعه أبواه من الاختلاف لطلب
العلم حرصاً منهما على الكسب ، فأخذ ابن حرب وأجرى على أبويه راتباً شهرياً
قدره عشرون درهماً . وقد مات الإسكافي سنة ٢٤٠ هـ^٣ .

??????

١- القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٦٠ ، الشهرستاني : الملل والنحل . ج ١
ص ٦٩ ، الإسفرايبي : التبصير في الدين . ص ٤٧ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ١٦٧
٢- القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٦٠ ، القاضي عبد الجبار : المحيط
بالتكليف . ص ٤٢٨ ، ٤٢٩
٣- القاضي عبد الجبار : المنية والأمل . ص ٦٦ ، القاضي عبد الجبار : المحيط بالتكليف
ص ٤٢٧ ، الإسفرايبي : التبصير في الدين . ص ٤٨ ، البغدادي : الفرق بين الفرق . ص ٦٩

رابعاً: الخلاف بين المدرستين :

لا شك أن المعتزلة فرقة من الفرق الكلامية الإسلامية التي تعتبر - في عقلانية قوية - عن روح الإسلام وجوهره ، وأنهم - المعتزلة - يُعتبرون أكثر الفرق الكلامية زوداً عن الإسلام ، وعملاً على دحض آراء وشبه المخالفين ، ونشاطاً من أجل توسيع المدارك العقلية لأصحاب الملة والعقيدة .

ونرى أن الخلاف الذي قد كان بين المعتزلة بعضهم البعض ، هذا الخلاف لم يكن خلافاً مُخرجاً عن الملة ، وقد أوضحنا أن هذا الخلاف - فيما نرى - لم يكن خلافاً جوهرياً ، ودليلنا على ذلك أن المعتزلة متفقون على الأصول الخمسة المعروفة في أوساط المعتزلة^١ . وما دام الأمر كذلك فإن الخلاف في الفروع لا يخرج صاحبه من الملة ولا من الفرقة^٢ .

والدارس للمعتزلة ينتهي إلى أنهم كانوا السباقين إلى الزود عن العقيدة الإسلامية ضد أي نحلة يرون فيها مخالفة لما رأوه مما اجتمعت عليه الأمة ، فكتب المقالات تذكر أن أول كتابين وضعوا في هذا الأمر كانا لأول علمين من أعلام المعتزلة : واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وإلى هذا جاء قول أبي الحسن الأشعري " وقد حفظ لنا التاريخ اسم كتابين ألفا في أوائل القرن الثاني الهجري في الرد على بعض من ظهر في هذه المدة بنحلة تخالف ما عليه جماعة المسلمين ، فأما أحد الكتابين فكتاب " الرد على القدرية " صنفه شيخ المعتزلة وزاهدهم عمرو بن عبيد . وأما الكتاب الآخر فكتاب " أصناف المرجئة " الذي ألفه أول المعتزلة وأعجوبتهم واصل بن عطاء مولى بني ضبة ، ويقال مولى بني مخزوم . المعروف بالغزال " ^٣ .

^١ الحباط : الانتصار . ص ١٢٧ ، القاضي عبد الجبار : فصل الاعتزال . ص ١٣٩ ، الملطي : السبب والرد . ص ٢٨ .

^٢ القاضي عبد الجبار : فصل الاعتزال . ص ٣٤٦ ، صالح المقبلي : العلم الشامخ . ص ٧١ ، سبزو : تاريخ العرب العام . ص ٣٩٢ ، د. حنا الفاخوري : تاريخ الفلسفة العربية . ص ١٥٢ ، السبب : السبب والرد . ص ٢٨ ، ابن المرتضى : طبقات المعتزلة . ص ح ، أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين . ج ١ ص ١٧ .

وقد ساعد المعتزلة أن يكونوا المدافعين الأول عن الإسلام في زمانهم ، أن فرقتهم .
أو مدرستهم قد ضمت أبرع الأقوام فصاحةً وقوةً حجةً ، واتصالهم ببعض الخلفاء
المستبشرين ، الذين جعلوا للمعتزلة " رأياً إعلامياً " ! يخاطب الجمهور فيوضح الدين
ويزيل كثيراً من اللبس ، وأخيراً - وهو ما يهمنا في هذا الجزء من هذه الدراسة -
أن المعتزلة قد كانوا أكثر ما يكونون تعاوناً وتآلفاً واتحاداً ، مما يؤيد ما نريد الذهاب
إليه من أن خلاف المعتزلة بعضهم مع بعض كان خلافاً في الفروع .

وفي ذلك يقول أبو الحسن الأشعري : تعاون هؤلاء الناس - المعتزلة - على ما
هم بسبيله ، وصلة بعضهم ببعض ، الصلة الوثيقة العروة ، وعطف بعضهم على
بعض ، حتى ضرب الأدباء المثل بتآلفهم ، فقد كتب أبو محمد العلوي إلى أبي بكر
الخوارزمي يقول : إن اعتداده به اعتداد العلوي بالشييعي ، والمعتزلي بالمعتزلي^١ .

ومن ثم فإن المعتزلة " قد تناولت مسائل الله والإنسان والعالم ، بالنظر لعقلي
الخالص ، وكانت - كفرقة كلامية إسلامية ، وهي تبحث في هذه المباحث - لا تخرج
عن الدفاع عن الإسلام ضد الفرق الأخرى ، ولم تخرج عن كونها فرقة إسلامية
مخالصة " ^٢ .

وإذا كان البغدادي يذهب إلى القول بأن البغداديين يكفرون البصريين^٣ ، فإن كتب
المعتزلة أنفسهم تدلل لنا على أن المعتزلة قد ورث اللاحق منهم السابق وأن اختلافهم
لم يمنع من علاقة الأخذ والعطاء والتراجم بينهم ، بل إن هناك اشتراكاً في الآراء بين
المدرستين المختلفتين في كثير من المسائل^٤ .

^١ أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين . ج ١ ص ٢٢ ، د. عصام الدين محمد علي :
فلسفة و فرق المعرلة . ملحق بكتاب المنية والأمل . للفاضل عبد الجبار . ص ١٠٢ ، ١٠٤ .

^٢ د. عصام الدين محمد : فلسفة و فرق المعتزلة . ص ١٠٤ .

^٣ البغدادي : أصول الدين . استانبول ١٩٢٨ م ص ٢٤٢ ، البغدادي : الفرق بين الفرق
ص ١٥٦ ، ومواضع مختلفة .

^٤ مثل ماويل صفة الله تعالى السمع والبصر ، على معنى العلم بالموجودات
المسموعة والمرئية ! انظر : الشهرستاني : نهاية الإقدام في علم الكلام . بغداد
ص ٢٤١ ، البغدادي : أصول الدين . ص ٤٤ ، ٩٠ ، سوان الحميري : الحور العين . ص ١٨٦ .

وقد سبق وأشرنا إلى أننا لا نلغي هذا الخلاف ، ولا نقلل من أهميته - بل وخطورته - ولكن ما نريد أن ننبه إليه ، هو أن هذا الخلاف لم يتعد - في الغالب الأعم - الفروع إلى الأصول ، أو إلى العقائد التي توجب الخروج من حظيرة الدين - الكفر - وإلى القول بفساد الأصول الاعتزالية برمتها^١ .

وعلاوة على كتاب أبي رشيد "المسائل في الخلاف" فإن هناك شواهد ودلائل نعلم منها وجود هذا الخلاف بين المعتزلة ، ولا نقول بين البصريين والبغداديين فقط ، بل بين أصحاب التيار الواحد ، فدارسو علم الكلام يعلمون أن خلافاً قد كان بين النظام - إبراهيم بن سيار - وشيخه العلاف^٢ ، كما أن النظام قد خالفه الجاحظ - تلميذه - في كثير من المسائل^٣ ، والجبائيان قد كان بينهما خلاف لا يُنكر ، وهما - بين المعتزلة - شيخان كبيران ، وصار الخلاف بينهما ذائعاً بين أوساط المعتزلة ، رغم أن الاثنين - الأب والابن - كانا ضمن مدرسة اعتزالية واحدة^٤ ، لكن هذا الاختلاف " لم يكن في الأصول ، إنما هو - كالعادة - في الفروع ، وإن كان هذا الخلاف قد يبلغ أحياناً درجة كبيرة من الشدة " .^٥

لكن ما يمكن أن ننتهي إليه هو أن المدرستين : البصرة وبغداد ، قد ساهمتا في الدفاع عن أصول الاعتزال ، إلا أن ظروفًا سياسية قد عملت عملها فتباعدت المسافة فيما بين المعتزلة .

^١ الخياط : الانتصار ، ص ١٢٧ ، سيدو : تاريخ العرب العام ، ص ٢٩٢ ، د. سامي نصر لطف : نماذج من الحكمة الدينية للمسلمين ، القاهرة ١٩٧٨ م ط ١ ج ١ ص ٢٨١ .
^٢ القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٤٤ ، ابن عبد ربه : العقد المفرد ، تحقيق أحمد أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦ م ط ٢ ج ٢ ص ٤١٢ ، ابن نباتة : سراج العيون ، ص ٢٢٧ ، الملطي : التنبيه والرد ، ص ٢٩ .
^٣ الجاحظ : رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٧٩ م ج ٢ ص ٢٢٨ ، ج ٤ ص ٥٢ .
^٤ كما أن أبا علي قد كان يخالف العلاف - مع تقديره غير المحدود له - في أربعين مسألة ، انظر : القاضي عبد الجبار : المنية والأمل ، ص ٧١ ، القاضي عبد الجبار : فضل الاعتزال ، ص ٢٩٤ ، أبو رشيد : ديوان الأصول ، ص ١١٩ .
^٥ على فهمي حشيم : الجبائيان ، ص ٢٢٦ ، ٢٥٤ ، وسوف يكون القسم الثاني من هذه الدراسة - بعصولة التلانة - مشتملاً على صور من هذا الخلاف القائم بين المدرستين بصورة أكثر تفصيلاً وإسهاباً .

ولقد كانت الخلافات في مشكلة الإمامة وقضية التفضيل ، هي السبب الأول وراء ظهور مدرسة بشر بن المعتمر في بغداد بشكل أكثر استقلالاً^١ .

ولقد كان الاعتزال في البصرة يميل إلى النواحي النظرية أكثر من بحثه في النواحي العملية التطبيقية ، على حين كان الاعتزال في بغداد متمسكاً بالحركة السياسية والاجتماعية الفاعلة ، وذلك نتيجة لعدة عوامل لعل من أهمها اقتراب رجال المعتزلة من السلطة السياسية الحاكمة ، حتى تم " احتواء المأمون سياسياً ، بإقراره مبدأ أفضلية البيت العلوي بالخلافة ، وبدأت نشاطات البغداديين الدؤوبة في مشاركة السلطة مسؤولية الحكم ، وتخطيط سياستها المذهبية والداخلية " ^٢ وحتى قال الناصر الأتروش^٣ - وهو أحد الخارجين على سلطة الخليفة العباسي - منادياً بـ " العمل بالكتاب والسنة ، وبما صحح عن أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب في أصول الدين وفروعه ، والنهي أشد النهي عن القول بالجبر والتشبيه ، ومتابعة الموحدين القائلين بالعدل والتوحيد " ^٤ .

كما يمكن إضافة خاصية أخرى لمدرسة بغداد الاعتزالية ، وهي تعمقها الشديد ، أكثر من مدرسة البصرة ، في المسائل الفلسفية ، واعتمادها على الطرائق الفلسفية في الجدل والحوار ، وقولها بمسائل فلسفية على قدر كبير من الدقة . ولقد كان السبب في ذلك حركة الترجمة التي شهدتها بغداد على أيدي العلماء بتأييد من الخلفاء العباسيين ، مما دفعهم - معتزلة بغداد - إلى البحث في مسائل لم يبحثها البصريون بنفس الطريقة التي بحثها بها البغداديون ، أو لم يبحثوها أصلاً : كقول البغداديين إن في مقهور الله تعالى لطفاً لو فعله بالكافر لآمن طواعية . فأنكر ذلك البصريون ، إذ أنه

^١ - القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة . ص ٧٦٦ ، القاضي عبد الجبار : المعنى في أبواب التوحيد والعدل . ج ٢٠ "الإمامة" ص ١١٢ : ١١٤ .

^٢ د. عبد الستار الراوي : العقل والحرية . دراسة في فكر القاضي عبد الجبار المعتزلي . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٠ م ط ١ ص ٢٠ : ٢٢ .

^٣ هو أحد رجال البيت العلوي ، سمي بالأطروش لأن أحد عمال الخليفة العباسي ضربه بالسوط فوقع على أذنيه فأصابه الطرش . انظر : د. أحمد محمود صبحي : التبريد ص ١٩٠ .

^٤ د. أحمد محمود صبحي : المرجع السابق . ص ٨٨ .

سوف يؤدي إلى القول بكون الله - حاشاه - ظالماً أو عاجزاً. ومثل بحث معتزلة بغداد في مسألة خلق القرآن والجوهر والعرض وحدود الأشياء^١. وكذلك قول بشر بن المعتمر بالتوليد بصورة لم يقل بها البصريون من قبل^٢.
وتبقى سمة " النظرية " واضحة على مدرسة البصرة الاعتزالية ، وليلينا في ذلك أن أبا رشيد النيسابوري قد كان الاتجاه النظري عنده غالباً على الاتجاه العملي ، حيث نجد اهتماماً كبيراً من جانبه بالبحث في المسائل النظرية وفي دقيق الكلام ، أكثر من الاهتمام بالمسائل العملية ، حتى نجد المشايخين للمعتزلة قد حاولوا - فيما بعد - استبدال مبحث للسياسة بمبحث البصريين في المنزلة بين المنزلتين^٣، كما نجد أبا رشيد وقد أفاض في الحديث عن أصلي التوحيد والعقل أكثر من حديثه عن أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

??????

^١ القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة. ص ٥٢٧: ٥٦٣، القاضي عبد الجبار: المغنى ج ٧ "خلق القرآن" تحقيق إبراهيم الأبياري. مواضع مختلفة .

^٢ الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٦٤

^٣ د. أحمد محمود صبحي: الزيدية. ص ٩، ٢٢٢